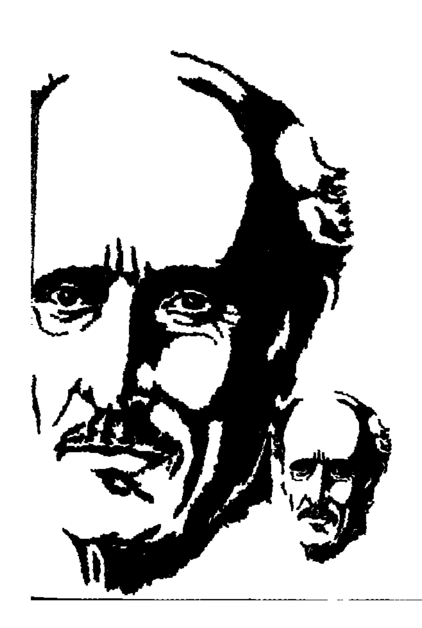
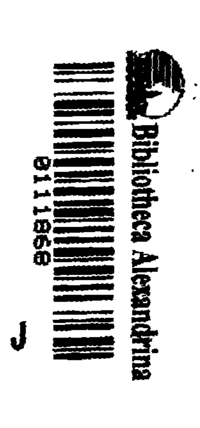
ميخائيل نعيمه

يا ابن آدم









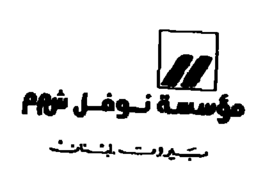
يا ابنَ آدم !



ميخائيل نعيمه

يا ابن آدم!

حوار بين رجلين



الطبعة الرابعة

١٩٨٨

© مؤسسة نوفل ش.م.م
بناية نوفل - شارع المعماري - ص.ب ١١.٢١٦١ - تلفون ٣٥٤٨٩٨ - ٣٥٤٣٩٤ - تلكس نوستن ٢٢٢١٠ - بيروت - لبنان

NAUFAL BLDG. - MAMARI STR. - P.O.BOX 11-2161 - PHONE 354898-354394 - TELEX NAUSTN 22210 LE - BEIRUT - LEBANON

الى الذينَ حياتهم حِوارٌ دائمٌ معَ

الحياة



في غابة كثيفة الأشجار والأدغال يختبيء كوخ صغير . أرضه من التراب ، وجدرانه وسقفه من القصب وسَعَف النخيل .

في وسط الكوخ يجلس على حصير من القش شيخ جلّله الشيب ، وقد غطّت لحيتُه الجميلةُ جانباً من صدره ، وانسدل شعره الطويل على كتفيه وظهره . في عينيه الزرقاوين ووجهه الخالي من الغضون براءة الطفولة . ونضارة الشباب ، وعزيمة الكهولة ، وحكمة الشيخوخة ، وطمأنينة الإيمان . جسمه البديع التكوين عارٍ من كلّ لباس إلا من مئزر يستر عورته . إلى جانب الشيخ كومة من القش يحوك منها حصيراً جديداً .

يظهر بغتة في باب الكوخ المفتوح رجل يبدو ما بين الخامسة والعشرين والثلاثين ، وهو في لباس الصيد ، وقد تدلّت من كتفه بندقية سريعة الطلقات . وحالما يقع بصره على الشيخ يجمد مكانه كمن أخذته الدهشة فانعقد لسانه . وينظر إليه الشيخ بدهشة مماثلة وقد توقف عن حياكة الحصير .

حرف « الشين » في هذا الحوار يشير إلى الشيخ . وحرف « الميم » إلى المراسل . إذ يتكشف الصياد في ما يلي عن أكبر مراسل لأكبر وكالة للأخبار في العالم .

م (ينزع قبعته عن رأسه ويطرحها بعيداً . ثم يقبض على شعره بكلتا يديه ويصيح عالياً :)

يا إلهي ! ! !

ش (يحدق صامتاً)

م أفي حلم أنا ؟ ! (يفرك عينيه)

ش (يبقى على حاله)

م لا أصدّق عينيّ . (يعود يفرك عينيه)

ش (يحدّق كالسابق)

م يا لها رمية من غير رامٍ ! أكاد أجنّ من شدّة الفرح . أصحيح أنّي واقف في حضرة الدكتور صَنْبيمْ العظيم ؟ وأين ؟ ! وفي أي حال ؟ ! لكأنّها حكاية منتزعة من ألف ليلة وليلة .

ش وأنتَ من تكون ؟

م ألعلك نسيتَني يا دكتور ؟

ش اعذرني . لستُ أذكرك .

م لا عجب . كيف لك ، وأنت مَن أنت ، أن تذكر جميع الذين اتّصلوا بك من قريب أو من بعيد ما بين مُعجبين ومُستثمرين وفضوليّين ؟

ش صحيح .

م إذا كان للسراج أن يذكر جميع الفراشات الّتي
تحوم حواليه كان لرجل مثلك أن يذكر جميع
النّاس الذين حاموا حواليه .

ش صحيح . صحيح .

م على أنّني كنتُ أظنّني أكثر من فراشة عابرة في
حياتك .

ش تعني أنّنا تلاقينا وتحادثنا وتعارفنا قبل اليوم ؟

م ذلك ما أعنيه بالتمام .

ش ومتى وأين تلاقينا ؟

م ألا تذكر سهرة كاملة أمضيتُها وإياك في مصيفك
الجميل قبل عامين ؟

ش وعمّاذا تحدثنا في تلك السهرة ؟

م تحدثنا عنك – عن حياتك الغنيّة بالتجارب .
وبخاصّة عن اختراعك المدهش الذي أقام الدنيا
وأقعدها .

ن آ . بدأت أذكر شيئاً من ذلك . ولكن كما من خلال الضباب .

م والمقال الذي كتبتُه على أثر مقابلتنا تناقلته يومئذ أُمّهات الصحف في كلّ مكان . وقد أعجبك إلى حدّ أن بعثت إليّ برسالة شكر وتقدير . وتلك الرسالة هي اليوم أثمن ما أملك . وأنا أحرص عليها حرصي على حدقة عيني .

ن ألعلك مراسل وكالة «أخبار العالم» ؟

م أنا هو .

ن وكيف عرفتني وقد تغيّرتُ كثيراً ؟

م هذا الوجه لا يمكن أن يراه الإنسان مرّة ثم ينساه . أجل ، تغيّرتَ كثيراً . فهذه اللحية المُوسَويّة لم تكن . ولا كان هذا الشعر الأبيض ، المتماوج . أمّا هاتان العينان الزرقاوان فَهُما هُما . وهذا الجبين العريض العالي فهو هو . إنهما عينا الدكتور صَنْبيمْ وجبينه .

ش وماذا جاءَ بك إلى هذه الجزيرة النائية التي قلَّما تطأها أقدام أناس من الذين يدعون أنفسهم متمدّنين ؟

م لذلك حكاية طويلة . هل يزعجك أن تسمعها ؟

ش أبداً . تفضَّل واحكها .

م أتأذن لي بالجلوس ؟

ش بالطبع . بالطبع . ولكنني أرجوك قبل أن تجلس أن تترك بندقيتك وكلَّ ما لديك من أدوات الصيد خارجاً ، وأن تطمرها بالأعشاب والأوراق حيث لا يمكن أن تبصرها أيُّ عينٍ - حتَّى عين ذبابة أو فراشة .

م تدبير غريب . ألا تريدني أن أطمر نفسي كذلك ؟

ش لولا شفقتي عليك لطلبت إليك أن تفعل ما تقول .

م ألهذا الحد ؟ ! لا . لن أطمر نفسي في أسعد لحظة وأروع يوم من أيام حياتي . هل لي أن أعرف قصدك من هذا التدبير ؟

ش   ستعرفه فيما بعد .

م   (يخرج ليعود بعد قليل وليس لديه شيء من عدّة الصيد) لقد فعلت كما أمرت .

ش   تفضّل واجلس .

م   (يتلفّت يميناً ويساراً كمن يفتّش عن كرسي) وأين أجلس ؟

ش   هنا ، على الحصير بجانبي إذا شئت . أم أنه يزعجك أن تجلس على الحصير ؟

م   أبداً . . . لقد جلست في حياتي على ما هو أقسى من الحصير . (يجلس متثاقلاً ومتزعجاً ويبقى طوال الحوار يغيّر ويبدّل في جلسته ، في حين يبقى الشيخ في وضع واحد) .

ش   هات حكايتك .

م   حكايتي يا دكتور تبتدىء بك وتنتهي إليك .

ش   كلام مثير .

م   وأنا لو شئت أن أصف لك عظيم دهشتي وبهجتي بالعثور عليك ، وفي مثل هذا المكان ، وعلى هذه الصورة ، لما استطعت . وماذا أقول في

الظروف التي قادتني إليك ؟ إنّها لأغرب من نسج الخيال .

ش هات ما عندك . وقتي ليس من ذهب .

م أتعرف يا دكتور أنّني أفتّش عنك تفتيشاً محموماً منذ ما يقارب العامين – منذ أن اختفيت دون أن تترك وراءك أيّ أثرٍ يُستدلُّ به عليك أو على أسباب اختفائك ؟

ش ولماذا تفتيشك ؟

م لست وحدي الذي يفتّش. هناك آلاف المفتشين . بلادك كلُّها تفتّش عنك . العالم كلُّه يفتش . وحكومة بلادك تكاد تفقد صوابها بسبب اختفائك الفجائي . فهي لا تهتدي إلى أي مبرّر له من بعد أن كرّمتك تكريماً لم يحظَ بمثله أكبر رجالها العسكريّين والسّياسيّين ، وأعظم علمائها وفنّانيها وأُدبائها . وقد أجزلتْ لك العطاء كما لم تجزله لأيٍّ من العاملين على تطوير سلاحها

الدّفاعي والهجومي تطويراً يجعل منها سيّدة الأرض دون منازع . واختراعك المدهش قد بوّأها تلك المكانة .

ش ما كنت أظن . يوم وهبتُ بلادي حقّ التصرّف باختراعي ، أنّني وهبتها كذلك حقّ التصرّف بحياتي .

م حياة العظماء ليست لهم . إنّها لبلادهم أوّلاً ثمّ للعالم . ولأنّك أعظم عظماء هذا العصر فلا عجب أن يهزّ خبرُ اختفائك بلادك حتّى الأعماق ، بل أن يهزّ العالم بأسره ، وأن يتجنّد للتفتيش عنك آلافٌ من رجال التحرّي ، ورجال الصحافة في الكثير من أقطار المعمورة . وعلى الأخصّ من بعد أن أعلنَتْ حكومة بلادك جائزةً قدرها مليون دولار للّذي يدلّها عليك حيّاً ، أو يأتيها بدليل قاطع على موتك .

ش مليون دولار ؟ ! ما أغلاني عدوّاً للحياة ،

وما أرخصني صديقاً لها !

م ولكنّها جائزة تُسيل اللعاب . أليس كذلك يا دكتور؟

ش تسيله لتجفِّفه .

م لا . لا تجفِّفه . إنّها لثروة هائلة لرجل مثلي .

ش إذن هي الجائزة حملتك على التفتيش عني .

م هنالك أسباب أُخرى قد لا تكون الجائزة أهمَّها. من هذه الأسباب أنّني عرفتك عن كتب فأُعجبت بك وأحببتك . ومنها أنّني أُحبُّ بلادي وأكره أعداءها . وقد سَرَتْ إشاعة قويّة أنّ جواسيس دولةٍ من دول المعسكر المناوىء لبلادنا قد اختطفوك ليحصلوا منك على سرّ اختراعك الرهيب .

ش ما أعجب الخيال إذا أنت أطلقت له العنان !

م والأعجب من ذلك أن يقوم مَن يجزم جزماً بأنك تنكّرت لنظام الحكم والمعيشة في بلادك وآثرت عليه نظام بلَد من البلدان المناوئة

لبلادك فتسلّلت إليه خلسة وبملء إرادتك .

ش وماذا بعدُ من غريب التكهنات والأقاويل ؟

م منها أنك ندمت على اختراعك ، فحاولتَ استرداده من الحكومة ، وإذ أخفقتَ انتحرت .

ش هذا صحيح .

م (فاغراً فاه دهشة) أتعني . . . أتعني أنك حاولت . . . الانتحار ؟

ش بل أعني أنّني انتحرت .

م دكتور صَنْبيم ؟ ! !

ش لماذا دهشتك ؟ دكتور صنبيم الذي عرفتَه قبل عامين قد انتحر . نعم . انتحر . والذي تراه الآن أمامك هو غيره .

م لست أفهم .

ش ستفهم فيما بعد . أمّا الآن فتابع قصتك .

م الخلاصة يا دكتور أن حمّى التفتيش عنك سرَت إليّ للأسباب التي ذكرت ، ولأسباب

أُخرى أهمّها أَنّي رجل مغرم بتقصّي الأَخبار الكبيرة من منابعها ، ويدغدغ كبريائي حتّى الجنون أَن أكون السبّاق إلى اكتشافها ونشرها .

والآن في استطاعتك أَن تفهم لماذا أَحسب هذا اليوم أَسعد يوم في حياتي على الإطلاق .

ش لقد اهتديتَ إلى حلّ اللُّغز . وهكذا كفلتَ لنفسك جائزة المليون دولار . ثمّ كفلت لنفسك التقدير الرفيع من قِبَل المؤسّسة التي تعمل لها . ناهيك بما سيكون من تهافت الصحف عليك ، ودور النشر ، والسينما ، والراديو ، والتلفزيون وغيرها وغيرها . هذه أُمور ما غابَت عن ذِهني بعد .

م لكأنّك تتكلّم بِلساني .

ش لا كان اختراعي . ولا كانت شهرتي .

م أَنت تمزحُ من غير شكّ .

ش بلْ إنّني جادّ كلّ الجدّ .

م	دكتور صَنْبيم !!

ش	نعم .

م	أصحيح أنك لا تمزح ؟

ش	صحيح .

م	لا تُؤاخذني يا دكتور . إنَّه لفوق طاقتي أن أتخيَّل رجلاً مثلك يتنكَّر لشهرته من بعد أن طبّقت الآفاق . الجهاز الذي ابتدعتَه ، والذي تستطيع به أن تسلِّط «أشعّة الموت» على أيّ بقعة من بقاع الأَرض فتقضي على كلّ حيٍّ فيها ، ذلك الجهاز هو أرهب ما تفتّق عنه العقل البشري حتّى اليوم . والدولة التي تملكه تملك السلطان المطلق في الأَرض . وأنت قد أوليت دولتك ذلك السلطان . فأُولئك أَرفع المجد وأَوسع الثروة والشهرة . وها أَنتَ تريدني أنْ أُصدّق أنك تتنكَّر لاختراعك ولمجدك وثروتك وشهرتك. لا تؤاخذني يا دكتور . . .

ش لم تقل لي بعدُ ماذا جاء بك إلى هذه الجزيرة النائية وكيف اهتديْتَ إليَّ .

م تريد أن تغيِّر مجرى الحديث . لا بأس .
الفضل في اهتدائي إليك يعود إلى طبيبي أوّلاً ، ومن بعده إلى أرنب كنت أطارده منذ ساعة في هذه الغابة فقادني إلى هذا الكوخ واختفى . ويا ليتني أستطيع القبض عليه الآن .

ش لتعدمه الحياة لقاء ما سبّب لك من غيظ ومن عناء ؟

م بل لأضمّه إلى صدري وأقبّله بين عينيه وآخذه معي إلى بلادي فأكرمه كما لم يكرَّم أيّ أرنب قبله . أليس أنّه هداني إليك ؟

ش وطبيبك – ما شأنه في هذه القصّة ؟

م لولاه لما اهتديت إلى الأرنب . ففضله هوَ الأسبق . لله ما أغرب المصادَفات !

ش بَلْ قُلْ : ما أروع السُّبل التي تسلُكُها الحياة لتحقيق غرضٍ من أغراضها ! فها هي تسخّر

طبيباً خلْفَ المحيطات وأرنباً في هذه الغابة لتنفيذ مأرب من مآربها .

م الذي هو مأربي .

ش وما أدراك أنَّهُ ليس مأربي كذلك ، ومأرب طَبيبك ، ومأرب الأرنب ، ومأرب الآلاف من الناس وغيرهم من الكائنات ؟

م قد يكون . قد يكون . نحنُ ، في الواقع ، عُميان .

ش ولكنَّ الذي يقودنا مُبصر .

م ومَن هو ؟

ش دعنا من ذلك الآن ولنعد إلى قصّتك .

م ليته كان لي أن أروي قصّتي في أدقّ تفاصيلها وملابساتها . ولكن هيهات ! فنحن لا نروي ممّا يحصل لنا غير النواتىء التي تبرز في الذاكرة ، أمّا الشرايين اللّطيفة ، وأمّا العضلات الخفيّة التي تشدّ أجزاء الحكاية بعضها إلى بعض فقلّما نذكرها

ش   كلام وجيه جدّاً .

م   هل تصدّق يا دكتور أن انشغالي بقضيّتك قد سبّب لي انهياراً في الأعصاب كاد يُفضي بي إلى بيت المجانين ؟

ش   ألهذا الحدّ شغلتك قضيّتي ؟

م   نعم . نعم . لقد أهملتُ كلَّ شيء عداها ـ عائلتي . صحّتي . عملي . كلَّ شيء . كلَّ شيء . لعلَّك تسخر بي إذا أخبرتك أنّني في البحث عنك لجأت إلى السحرة والمنجّمين والمشعوذين . إلى وسائل لا تخطر لك في بال . زرت بلْداناً كثيرة وتحدثت إلى البارزين من رجال المخابرات فيها ، ومن رجال العلم والسياسة . وبلغ بي الهوس أن غامرت بحياتي عندما دخلت بلَداً من البلدان المناوئة لبلادنا بجواز مزوّر ، وهو البلد الّذي ظنّ الكثير من الناس أن جواسيسه اختطفوك ، أو أنّهم يسّروا لك الهرب إليه لأنك

هكذا شئت .

ش ما أوسع خيال الناس في بعض الأُمور وأضيقه في أُخرى .

م الخلاصة يا دكتور أنّني أنفقت في البحث عنك الكثير من وقتي ، ومن مالي ، ومن صحّتي . ورحت أهزل وأهزل كمن به سلّ أو سرطان . حتّى أمسيت وأجفاني مقرّحة من قلّة النوم ، ومعدتي لا تقوى على هضم الحساء والماء ، وأعصابي لا تتحمّل طنين ذبابة أو حفيف ورقة على شجرة .

ش وكلّ ذلك بسببي وسبب المليون دولار ؟

م لا تنسَ المحنة الصحافية – محنة السّبق إلى استقاء الأَخبار المثيرة من منابعها والسبق في نشرها .

صُعق الطبيب عندما استشرته في أمري . قال لي بالحرف : «يا مجرم ! ألهذا الحدّ تهمل

نفسك ؟ لم يبق بينك وبين الجنون إلاَّ شعرة .
اترك في الحال كلَّ عمل – كلَّ شيء – واذهب
إلى بلاد غير مأهولة ، وعش كما تعيش الطير
والحشرات . لا تقرأ أخباراً ، ولا تسمع أخباراً .
انْسَ نفسك ولو لسنة » .
هكذا أمرني الطبيب . وهكذا فعلت .

ش أعجبتني جدّاً وصفة طبيبك .

م تعني نصيحته إليّ بأن أعيش في بريّة عيشة النبتة والحشرة ؟

ش بل أعني قوله : « انْسَ نفسك ولو لسنة » .

م ولماذا أعجبتك ؟

ش لأن فيها الدواءَ لكلّ داءٍ . وهل نسيت نفسك ؟

م لم أكمل السنة بعد .

ش وماذا حملك على اختيار هذه الجزيرة بالذات ؟

م لعلّه عين الدافع الذي حملك على اختيارها .

ش تعني لأن المدنيّة لم تقتحمها بعد بسيّاراتها

وطيّاراتها ، ومتاجرها ومصارفها ، ومدارسها ومعابدها ، وشرطتها وجيشها ، وفنادقها وملاهيها ، وحكوماتها وباقي شعوذاتها ؟

م ذلك ما أعنيه بالتمام . وأضيف إليه ما سمعته من أفواه بعض العارفين عن مناخ هذه الجزيرة البديع ، والجمال الرائع في طبيعتها إلى جانب جودها المتناهي بكل ما يحتاجه الجسم البشري من فاكهة وبقول وحبوب وأصناف كثيرة من الجوز واللوز وما أشبه ، أمّا الطيور والحيوانات الصالحة للصيدْ فكثيرة . والذين أخبروني عن هذه الجزيرة أخبروني كذلك أن سكّانها شرذمة من الآدميين الطيّبين الذين لا يزالون يعيشون عيشة الفطرة ، وأنهم في منتهى الوداعة وحسن الصورة .

ش ما قالوه لك عن هذه الجزيرة هو الصحيح ، وأقلُّ من الصحيح ، وأين تعيش ؟ أبعيداً

من هنا ؟

م ما أظنني أستطيع أن أُحدّد لك المسافة والاتجاه .

ش أمَا تعرف ، ولو بالتقريب ، إذا كانت المسافة ميلاً واحداً أو عشرين ميلاً ، وإذا كان مقرك إلى الشرق من هنا أم إلى الغرب ، أم إلى الشمال أم إلى الجنوب ؟

م لا تستغرب . فقد اختلطت عليّ الاتجاهات وضاعت المسافات . دخلت هـذه الغابة منذ الصباح الباكر . وها هي الشمس تقترب من السَّمت وأنا لا أعرف من أين دخلتُ هذه الغابة وكيف أخرج منها . ولولا أنني اهتديت إليك لتولاّني الرعب من غير شك ولأيقنت أني هالك لا محالة .

ش وهكذا تعود أعصابك فتنهار من جديد .

م أكيد . أكيد . وهذا سبب آخر من أسباب بهجتي بالاهتداء إليك . بل هو فضل آخر من

أفضالك عليّ .

ش وهل كان صيدك وفيراً ؟

م كان من سوء حظي أنني لم أصادف غير الأرنب الذي ذكرت .

ش بل كان ذلك من حسن حظك .

م لأن الأرنب قادني إليك . صحيح . صحيح .

ش بالأحرى لأنك لم تهرق دماً ستحاسَب عنه يوماً ما . قل لي : هل استردّت أعصابك حالتها السوية ؟

م تماماً . تماماً . بل أراني اليوم أحسن منّي في أي يوم مضى .

ش ما أشبه حالتك بحالتي قبل عامين .

م أتعني أنك ابتُليت مثلي بانهيار في أعصابك ؟

ش وبأفظع من ذلك بكثير .

م بأفظع من ذلك ؟ ! غير ممكن . غير ممكن . اعذرني يا دكتور . اعذرني . إنّ ما عانيته في محنتي لم يعانِ أيّوب مثله في محنته . هل

شعرتَ يوماً بأن الكون كلّه بات عدوّك ؟

ش شعرت بأنني أصبحت عدوّ نفسي . وعداوة النفس أشدّ ضراوة من عداوة الكون .

م أمّا أنا فقد رحت أشعر كما لو كنت أُنازل الكون وحدي . زوجتي ، أولادي ، بيتي ، سريري ، مائدتي ، الثياب على بدني ، مدينتي ، عملي ، معارفي ، الأرض من تحتي والسماءُ من فوقي – هؤلاءِ كلهم باتوا وكأنهم يعملون على إزهاق الروح من بين ضلوعي . ولكَم تمنيت لو تزهق روحي . لكَم تمنيت لو أكون حجراً عديم الحسّ والحركة .

لا ، لا يا دكتور . الأوجاع التي تحمّلتها دون أن يكون في لحمي وفي عظمي أيّ وجع – تلك الأوجاع جعلتني أحترق بنار ولا نار جهنّم . لقد آنهارت الحياة في داخلي بانهيار أعصابي . ومعاذ الله أن تكون عانيت مثل ذلك الانهيار .

ش   أمّا انهياري فكان من نوع آخر .

م   من نوع آخر ؟ !

ش   نعم . من نوع آخر .

م   وتقول إنه كان أفظع من انهياري ؟

ش   بكثير .

م   شوّقتني جدّاً لأنّ أعرف شيئاً عنه . هذا إذا كان الحديث عنه لا يزعجك .

ش   ليست المسألة مسألة إزعاج . إنها بالأحرى مسألة دقة وأمانة في الوصف والتعبير – في الوصول إلى ما دعوته أنت «الشرايين اللطيفة» في أيّ حادث يحدث لنا أو حالة نمرّ بها . وبدون هذه الشرايين فكلّ حديث حديث ناقص . وحديثي عمّا عانيته سيكون ناقصاً .

م   ما أظن أن أيّ حديث يصدر عن الدكتور صَنبيم يمكن أن يكون ناقصاً .

ش   ظنُّك بالدكتور صَنبيم خيرٌ من ظنّه بنفسه .

م	هذا تواضع منك يا دكتور . ولا عجب . فالتواضع من صفات العظماء .

ش	إنه التواضع المزيّف لعظمة مزيّفة .

م	ولكنّ العالم كلَّه قد شهد بعظمتك . فكيف تدعوها مزيّفة ؟

ش	وشهادة العالم كذلك شهادة مزيّفة . لذلك تبرأتُ منها .

م	تبرأتَ منها ؟ ! تبرأت من اختراعك ، ومن علمك ، ومن شهرتك ؟ أكاد لا أُصدّق .

ش	بل صدّق . تبرأت منها كلِّها . تبرأت حتّى من نفسي التي عايشتها سبعين عاماً .

م	لست أفهم . لست أفهم . لكأنك تحدثني بالألغاز .

ش	ههنا بيت القصيد . ها هي قصّة انهياري ملخّصة في بضع كلمات .

م	هذا كلام يتعذر عليَّ فهمه يا دكتور . فأنا لو كان لي اختراعك ، وكان لي علمك ، وكانت

لي شهرتك وثروتك لحسبتُني في السماءِ السابعة .

ش أمّا أنا فقد وجدتني بغتةً معها في جهنّم السابعة . ولذلك تبرأت منها فنجوت من جهنّم .

م تقول «بغتة» . هل لي أن أعرف كيف انتقلت بغتة من السماءِ السابعة إلى جهنّم السابعة ؟

ش هنالك يا صاحبي أشياءُ تنضج في نفوسنا عن غير وعي منّا . فلا نحسّها إلاّ ساعة يتمّ نضجها – ساعة تفور فتطغى على كلّ شيء عداها .

م تعني أنّ دوافع التبرّؤ من علمك واختراعك وشهرتك – حتّى من نفسك – كانت تعتلج في داخلك عن غير وعي منك إلى أن كانت ساعة اندلعت فيها تلك الدوافع من حالة اللاوعي إلى حالة الوعي فجرفتك جرفاً ؟

ش ذلك ما أعنيه بالتمام . وقد أحسنتَ التعبير إذ قلت إنها جرفتني جرفاً .

م أيزعجك أن تخبرني عن الساعة ، أو الدقيقة ،

التي فيها فارت تلك الدوافع التي تحدثني عنها ؟

ش لا يزعجني . ولكنه يستعصي عليّ ، أو يكاد .

م لن يستعصي على الذي تغلغل في أسرار الذرّة ، وأسرار الأشعّة الكونية ، أن يتغلغل في أسرار نفسه .

ش النفس – نفسنا – يا صاحبي هي غير الذرّة ، وغير الأشعّة الكونية . إنها مجموعة أطياف من الأحاسيس التي لا تنقاد إلى الدرس والتحليل في مختبرات العلماء . لذلك كان الحديث عنها مليئاً بالمزالق .

م لست أخشى الانزلاق على الدكتور صَنبيم . حسبي أن أسمع منه ما يمكنه البوح به . إني أصرّ على ذلك وإن كان في إصراري شيء من القحة .

ش سأحاول . سأحاول إكراماً لخاطرك . على أن تسعفني فتَسمعي بأُذنك الباطنية إذ أنت تصغي

إليّ بأُذنك الخارجية .

م سأَسمعك بأُذنيّ الاثنتين .

ش كان ذلك في مسكني الريفي الذي استقبلتك فيه منذ أكثر من عامين . وأَظنك تذكره .

م كيف لا أذكره وقد ترك في نفسي بالغ الأَثر ؟ إنه في الواقع متحف فنّي وروعةٌ هندسية لا مجرّد بيت صيفي . وأَنا ما نسيت الجبال الخضر التي تكتنفه من جهات ثلاث ، ولا الغابة الرائعة التي يقوم في وسطها ، ولا البركة الجميلة وسط الغابة ، ولا الجدول الجذِل الذي يصب في البركة ، والأَسماكَ التي كانت تتسابق فيها .

ش في تلك الليلة اتفق أَنَّ زوجتي وأَولادي كانوا في المدينة ؛ وكانوا سيبيتون فيها . فكنت في البيت وحدي . ولا أَذكر أَن الوحدة طابت لي مرّةً في حياتي مثلما طابت لي في تلك الليلة . خرجت بعد العشاء إلى الحديقة وجلست على

حافة البركة . كان القمر بدراً وقد انعكس ظلّه في الماء . لم تكن هي المرّة الأُولى أبصر فيها البدر في السماء وفي البركة . ولكنّها المرّة الأُولى يفعل فيّ منظر البدر ما فعله تلك الليلة . فما أدري كيف تغلغل نوره الخافت ، الهادىء ، في لحمي ، وفي دمي ، وفي عظمي ، وفي روحي . وإذا بي أتوزّع في كل فجّ وصوب ، وإذا بفكري ينشب نشوب البرق في كلّ ناحية من الفضاء فلا يستقرّ على بداية أو نهاية لأي شيء .

لقد وجدتُني مسحوراً في دنيا من السحر .

سِحرٌ هو القمر يهلّ ، ثم يكتمل ، ثم ينقص ، ثم يمّحق ، ثم يعيد الكرّة من جديد شهراً بعد شهر ، وعاماً تلو عام ، وعلى مدى آلاف الأعوام . ولتعرف أيّ سحر هو القمر ما عليك إلّا أن تتخيّل دنياك خالية منه .

سحر هي الشمس التي تلتهب منذ ملايين السنين ولمّا تحترق . ومن لهيبها نور القمر ، والنور في عينك وعيني وفي كلّ عين ، والحرارة في جسمك وجسمي وكلّ جسم جامد أو حيّ .

سحر هي الكواكب والشموس الأُخرى والمجرّات الدائرة في أفلاكها ؛ والتي منها ما يبعد عنّا ملايين السنين الضوئية .

سحر هي الأَرض برواسيها وصحاريها ، وأَنهارها وبحارها ، وفلواتها وغاباتها ، وطيرها وحشراتها ، وحيوانها وإنسانها .

سحر هي هـذه السكينة التي تلفّني ، والتي تناجيني بملايين الأَصوات .

أمّا السحر الأَكبر ـ السحر الذي ما قبله ولا بعده سحر ـ فهو هذا الفضاءُ الشاسع ، الرهيب ، اللامتناهي ، الذي يبدو فراغاً وما هو بالفراغ ، والذي تبدو الكواكب والشموس والمجرّات

المنثورة في رحابه وكأنها حفنة من حبوب الخردل والعدس والفول وقد نثرتها في بيداء لا أوّل لها ولا آخر .

غرقتُ في تأملاتي ، وغابت عنّي نفسي التي عايشتهـا وعايشتني سبعة عقود من السنين . وأحسستُني أتمدّد وأتمدّد في كلّ جانب كما لو كنت بخاراً . فأنا هنا ، وهناك ، وهنالك وفي كلّ مكان وزمان .

وفجأة شعرت كما لو أن باباً كان مغلقاً في داخلي فانفتح . أما اتفق لك أن انسدّت أذناك لفترة من الزمان ثم انفتحتا بغتة ؟ أو أن امتلأ رأسك ضجيجاً وهديراً ثم توقّف الضجيج والهدير ولو للحظة ؟ هكذا كان شعوري عندما انفتح ذلك الباب فجأة في داخلي .

لقد انفتح قلبي لكلّ ما كانت تلفّه سكينة ذلك الليل وأشعّة ذلك القمر : للأسماك في البركة

ولزهرات النَّيلوفر العائمة على وجهها . للأشجار في الحديقة والسناجب والعصافير الغافية في أحضانها . للحشرات والزحّافات وسائر المخلوقات التي تسعى وراء رزقها في الليل . لأنفاس الأرض المتصاعدة من صدرها . لأحلام الأطفال في مهودهم ، وأوجاع المرضى في أسرّتهم ، حتى ولعبث العابثين في مساخرهم . لكل نسمة عابرة وشعاع تائه في الفضاء .

إنه الشعور بما يشبه الذوبان في الكون . أو قُلْ إنها المحبة يا ابني أخذت تتدفق من قلبي أمواجاً تلو أمواج فتغمرني وتغمر كلّ ما في الكون بفيض من الدهشة والسلام والطمأنينة حتى بِتُّ ولا فاصل بيني وبين أيّ شيء في الفضاء من فوقي ومن تحتي ، وعن يميني وعن يساري . فكأنني والكون وحدة لا تنفصم – جسد واحد وروح واحد . بل كأننا روح ولا جسد .

(يتوقف الشيخ عن الكلام ، ويغمض عينيه بيديه ، ويبقى كذلك فترة طويلة ، ثم يستأنف حديثه)

يا لَها من ليلة ! يا له من شعور !
أن تكون لك هذه الآلة العجيبة التي هي جسدك ،
وأن تعمل هذه الآلة تلقائياً وبانتظام عجيب ،
وعن غير وعي منك ، فتنسى أنك تملك جسداً ؛
أن يستكنّ لسانك في فمك ؛
أن تَفرغ من بشاعات الناس عيناك ، ومن
فحيح شهواتهم أُذناك ،
أن لا تسعى وراءَ أيّ مطمح أرضيّ يداك ورجلاك ؛
أن تهرب من رأسك همومُ المختبرات ، ويستريح
دماغك من مهاميز الأرقام والمعادلات ؛
أن لا يكون لك عدوّ تتّقيه أو تتمنّى حذفه
من الوجود ؛
أن تزحل عن كتفيك أثقال المعيشة ؛
أن تعروك غفلة عن الزمان والمكان ، فلا تحسّ
زحف الدقائق والساعات ، وتفلت من قبضة

الأمتار والكيلومترات ،
أن لا يكون للخوف في نفسك أيّ ملجأ ؛
أن تصفو نفسك من كلّ أصناف الكدر فلا يبقى فيها إلّا المحبة ،
أن تُحِبّ ، وتحبّ ، وتحبّ ، وأن تخشع للمحبّة حتّى الذهول عن نفسك
أن تنسى نفسك . . .

(يعود الشيخ فيصمت مرّة أخرى مغمضاً عينيه . ثم يستأنف الحديث) .

لست أدري يا ابني كم طالت سياحتي في تلك الدنيا الساحرة والمسحورة . وأذكر أنّني عندما عدت إلى دنياي – دنيا الناس وهمومهم وغمومهم ، وشهواتهم ونزواتهم ، وسعاياتهم ونكاياتهم ، وحروبهم وكروبهم ، وعلومهم وفنونهم ، وفلسفاتهم ومُماحكاتهم ، ومعابدهم وعباداتهم ، ومساخرهم وملاهيهم ، ومصانعهم ومتاجرهم ، وأحقادهم وأمجادهم – تذكّرت اختراعي والمجدَ الذي

جاءني به فتقزّزت نفسي من نفسي ، وبدا لي اختراعي جريمة نكراء ضدّ الحياة . وبدا لي مجدي بصقة في وجهي ، وبدا لي علمي صدَفة جوفاء على شاطىء البحر ، وبدت لي حياتي في دُرْدور مدنيّة شادها العلم كابوساً رهيباً يحجب عنّي ذلك الوجه الحبيب الذي أبصرته فتمنيت لو أنه لا يغيب عن خاطري حتّى لمحة واحدة .

أفهمتَ يا ابني الآن لماذا أنا هنا ؟

م آسف يا دكتور . يبدو أنني غليظ العقل ، بطيءُ الفهم . أفلا أخذتَني بحلمك وتبسّطتَ قليلاً بعدُ في الكلام عن الوجه الذي أبصرته فأذهلك عن نفسك ؟ أيّ وجه هو ؟

ش ذلك الوجه يا صاحبي ليس وجهاً بالمعنى المألوف. فهو لا يوصف بالكلام ، ولا يُرسم بالألوان ، ولا يُمثّل في الخشب أو في الرخام ، ولا هو يُبصَر بالعين من لحم ودم . ولكنك إذا صَفَتْ

عدسة عينك وعدسة قلبك – وهي الأهمّ – استطعت أن ترى ملامح منه في كلّ وجه ، وبخاصّة في وجوه الأطفال وصغار الأحياء من كلّ نوع ، بل استطعت أن تلتقط إشعاعاته في كلّ شيء حتّى في الجماد ، وحتّى في النفايات الكريهة التي يفرزها الإنسان والحيوان .

م حقًّا إنّه لوجهٌ عجيبٌ هذا الذي تحدّثني عنه . ولكن وجه مَن هو ؟

ن تريدني أن أسمّي صاحب الوجه ؟

م ذلك ما أرجوه .

ن ولكنه لا يُسمّى .

م بل لا بدّ من تسميته لرجل مثلي لا زال يعيش في دنيا الأسماء .

ن إن لم يكن بدٌّ من تسميته فإني أسمّيه

الحيـاة

م	إذن أنت أبصرت الحياة وجهاً لوجه . أذلك ما تعنيه ؟

ش	ذلك ما أعنيه بالتمام .

م	وأيّ غرابة في ذلك ؟ أليس أنّنا مِن أكبرنا إلى أصغرنا ، ومن أعلمنا إلى أجهلنا ، وجهاً لوجه مع الحياة في كلّ لحظة من وجودنا ؟

ش	يا ليت . يا ليت .

م	لست أفهم هذه الـ «يا ليت» . ألعلّني قلت غير الواقع ، غير الحقيقة ؟ ألسنا دائماً أبداً وجهاً لوجه مع الحياة ؟

ش	وحريّ بك أن تضيف «ومع الموت» .

م	بالطبع . بالطبع . ومع الموت . فالموت نقيض الحياة . والنقيضان لا ينفصلان . لكل شيء ضدّ أو نقيض . حتى الله لم ينج من نقيض هو الشيطان .

ش	أجل يا صاحبي . لكلّ شيء ضدّ أو نقيض . إلّا الحياة . فهي وحدها لا ضدّ لها ولا نقيض .

م والموت ؟ أليس الموت نقيض الحياة ؟

ن الموت نقيض الولادة . كلّ ما يولد يموت . لكنّ الحياة التي أُحدّثك عنها لم تولد . فكيف تموت ؟

م إذن من أين جاءت ؟ ومتى ؟

ن آ . هنا يا بنيّ يخرس لساني ولسانك وكلّ لسان . هنا يتعطّل عقلك وعقلي ، وخيالك وخيالي ، وكلّ عقل وخيال .

هذه الـ «أين» وهـذه الـ «متى» إنْ هما غير علامتين في طريق الحواس والعقل الذي يتّكل عليها ضمن المكان والزمان . فلا الحواس ولا العقل تستطيع العمل إلّا في إطارٍ من البدايات والنهايات . أمّا حيث لا بداية ولا نهاية ؛ حيث لا «قبل» ولا «بعد» ، ولا «هنا» و «هناك» فعمل الحواس والعقل عمل لا طائل تحته .

م وترانا ، مع ذلك ، قد ابتدعنا كلمة «الأزل»

وكلمة «الأبد» . والكلمتان ابتدعهما العقل . أليس كذلك ؟

ش بلى . وهذا فضل من أفضال العقل على الإنسان . فقد بلغ به عتبة اللانهاية وقال له : «هنا تنتهي مهمّتي» . تماماً كما تفعل السيارة عندما تبلغ بك عتبة المطار لتسلّمك إلى طائرة نفّاثة تفوق سرعتها سرعة الصوت .

كان حَريّاً بي من زمان أن أعرف حدود عقلي فلا أتوقع منه فوق ما يستطيع . ولكنني لم أعرفها إلّا تلك الليلة عندما وجدتني بغتة وجهاً لوجه مع الحياة التي تملأُ الزمان والمكان فلا يبقى لهما وجود ، ولا يبقى وجودٌ غير وجودها .

م اعذرني يا دكتور . لا زلت في حيرة كبيرة من أمر هذه الحياة التي تحدثني عنها .

ش إنها لجرأة منّي – بل قد تكون قحة – أن أُحدّث عنها بكلمات محدودة الدّلالات ، وهي التي لا تُحَدّ .

هل ملأتَ عينيك يوماً يا صاحبي بمنظر هذا الفضاء الذي يلفّك ويلفّني ويلفّ كلّ منظور وغير منظور في الكون ؟

م بالطبع . عشرات ، بل مئات المرّات .

ش وماذا أبصرت فيه ؟

م أجراماً كثيرة لعلّها تُعَدّ بالملايين . ويقال إنّ بعضها أكبر من شمسنا مئات المرّات ، وإن بعضها يبعد عنّا ملايين السنوات الضوئية .

ش وهذه الأجرام ألعلّها تملأُ الفضاءَ ؟

م بل إنها لا تشغل غير حيّز جدّ ضئيل منه . فكأنها بالنسبة إليه ، كما سبق وقلتَ ، حفنة من حبوب الخردل والعدس والفول وقد نثرتها في بيداءَ لا أوّل لها ولا آخر .

ش وما تبقّى من الفضاءِ ؟

م فراغ . لا شيء .

ش ذلك الفراغ يا بنيّ ليس فراغاً على الإطلاق .

إنه بحر الحياة الذي لا شطوط له ، والذي لا شيء فيه إلاّ الحياة . ذلك اللاشيء هو كلّ شيء ، ومنه كل شيء . إنه الروح المالىء الوجود بوجوده .

م يدهشني منك يا دكتور ، وأنت من أنت في دنيا العِلم ، أن أسمعك تتكلم عن «الروح » . وعهدي بعشيرة العلماء أنهم إذا ذكروا الروح فبالكثير من التحفظ ، بل بشيء من الاستخفاف والاستهتار .

ش سيأتي يوم يدرك فيه حتّى العلماءُ أن الذي يملأُ هذا الفضاءَ اللامتناهي هو الروح ولا شيء إلّا الروح – الروح الأزليّ ، الأبديّ ، الكلّيّ ، الكامل ، الشامل ، الذي لا تحدّه أيّ الحدود ، ولا تقيسه أيّ المقاييس . إنه وحده الموجود . ومن وجوده كلّ وجود . لكنّ وجوده ليس جموداً . إنه نبض مستمرّ . منه الأرض ومَن

عليها وما عليها . ومنه الكواكب وما فيها .

م ها أنت تدعو الفضاء بحر الحياة . ثم تدعو الحياة روحاً . أأفهم من كلامك أنّ الحياة هي الروح ، والروح هو الحياة ، ولا فرق بين الاثنين ؟

ش الفرق في التّسمية لا أكثر . المهمّ أن تفهم المعنى فلا تتعثّر بالحروف .

م ألم تقل إن الحياة وحدها لا نقيض لها ؟

ش هكذا قلت .

م فكيف تجعلها واحداً مع الروح ، ونحن نعرف أن للروح نقيضاً هو المادّة ؟

ش هذا وَهْم يا بنيّ . فالمادّة ليست إلاّ من الروح ، ولا وجود لها إلّا بالروح وفي الروح . يتكثّف الروح فيغدو مادّة . وتشفّ المادة فتعود روحاً . والروح في الحالين هو الحقيقة الأزليّة ـ الأبديّة . إنه الينبوع . إنّه مصدر .

إنه الجوهر . أمّـا تكثّفاته فأعراض تستمدّ
وجودها من الجوهر . ولأنها أعراض فهي لا
تستقرّ على حال . أمّا الجوهر فواحد أبداً ، لا
يتغيّر ولا يتبدّل ، ولا يزيد ولا ينقص .

الأنفاس التي تصعّدها من صدرك ، والأنفاس
التي تصعّدها الأرض والمخلوقات التي عليها من
صدورها ـ هل هي مادّة أم هي روح ؟

م ليست مادّة ، كما أفهم المادّة ، فأنا لا أحسّها
بأي من حواسّي الخمس . ولا أنا أستطيع
التقاطها بأي جهاز من الأجهزة الدقيقة التي
ابتدعها العلم .

ش وتراها ، مع ذلك ، تتكثف في بعض الظروف
فتغدو محسوسة . أما اتفق لك ولو مرّة واحدة
أن خرجت من بيتك في يوم شديد الصقيع
فأبصرت أنفاسك في شكل بخارٍ ، أو في
شكل جليد على الشّعر في أنفك أو في شاربيك ،

إذا كان لك شاربان ، وحتّى على أهداب عينيك ؟

م مرّاتٍ لا مرّة واحدة .

ش هكذا يتكثّف الروح فيغدو مادّة . الروح أوّلاً ثم المادة . النفَس أوّلاً ثم البخار والجليد . لذلك فالعِلم الذي ينكر الروح ويبحث عن حقيقة المادّة في المادّة مقضيٌّ عليه بالدوران في حلقة مفرغة إلى أن تتقلّص المادّة بين يديه ويراه ، كما رأيت نفسي ، وجهاً لوجه مع الحياة التي لولاها لما كانت المادّة بأشكالها وألوانها التي لا حصر لها ولا عدّ .

م إذن هذه المحسوسات جميعها التي يحتويها الكون ليست سوى تكثّفات من تكثّفات الحياة التي تملأ الفضاءَ .

ش بذلك يوحي إليّ الفضاءُ .

م وهذه التكثّفات التي تحدثني عنها يا دكتور كيف تحدث ؟ هل هي تلقائية ؟ هل هي وليدة

نهج ونظام ؟ أم أنّها تحدث اعتباطاً وكيفما اتفق ؟

ن لست أُريد يا صاحبي أن أُلقي في خلدك أنني أثناء خلوتي القصيرة هنا مع الحياة قد أصبحت أمين سرّ الحياة الواقف على كلّ حركة من حركاتها وسكنة من سكناتها . ذلك ، في اعتقادي ، لم يتيسّر بعد لأيّ إنسان . وإذا اتفق وتيسّر مثل ذلك الوعي لإنسان من الناس فهو لن يستطيع أن ينطق به ، لأنه أوسع من أن يستوعبه أيّ كلام .

م قد يصحّ ذلك في الوعي الكامل للحياة الشاملة . ذلك الوعي ، بالتأكيد ، لن يتّسع له أيّ كلام . إلّا إذا اهتدينا إلى الكلمة الشاملة شمول الحياة .

لكنني أسألك لا عن ذلك الوعي ، بل عن رأيك في ما دعوته تكثّفات الحياة ، وهل هي تحدث

اعتباطاً ، أم عن قصد وتصميم ؟ وما هي الغاية من حدوثها ؟

ش الذي أراه يا صاحبي هو أن ما من شيء في هذا الكون اللّامتناهي حدث ، أو يحدث ، اعتباطاً . بل هو مصمَّم تصميماً يُذهل عقلنا القاصر ويشلّ أجنحة خيالنا في أجرإ وثباته وأبعدها . والتصميم دون تنفيذ لا قيمة له . والتنفيذ دون تنظيم لا يمكن أن يكون . ولأنّ كلّ محسوس في الكون هو من بحر الحياة وضمن بحر الحياة فالحياة إذن وحدهـا هي المصمِّم والمنفِّذ والمنظِّم . وأمّا كيف تصمِّم الحياة وتنفِّذ وتنظِّم ، ولماذا ، فأسئلة تجيبك عنها الحياة يوم تعيها أنت كما تعي هي ذاتها .

واحدة هي الحياة وواحد هو نظامها . فلا الحياة تتجزّأ . ولا نظامها يتجزّأ . ولأنّ العقل لا يستطيع العمل إلّا في الجزئيّات ترى أنّ

العلم الذي يحاول بالعقل فَهْمَ الحياة ونظامها قد تجزّأ هو ذاته إلى علوم كثيرة ، وهذه العلوم بدورها تجزأت إلى حقول اختصاص تضيق وتتكاثر باستمرار . حتّى بات من المتعذّر على عقل واحد أن يُلمّ بها جميعاً .

وهكذا قضى العقل على ذاته بالعجز عن وعي الحياة الشاملة والنظام الكامل . فهو مهما تعدّدت مختبراته ، ودقّت أدواته ، وكثرت اختراعاته واكتشافاته لن يتأتّى له فهم الحياة والنظام .

م أراك تقسو على العقل بالغ القسوة . فهل تُنكر المنجزات الهائلة الّتي جاءتنا بها ، وعلى الأخصّ في الزمان الأخير ، ومنها اختراعك المدهش ؟ إنّها لمعجزات .

ش أضعف ما في الإنسان عقله . والعجيب أن يعتزّ الإنسان بأضعف ما فيه .

(يتوقف الشيخ هنيهة ، ثم يستأنف الكلام وكأنه يخاطب نفسه)

عظيمٌ أنت يا ابن آدم !

عظيم فوق ما تتخيّل ،وفوق ما يخطر لك في بال .

عظيم أنت حتى بعقلك وإن يكن في غريزة البهيمة ما هو أعظم منه ، ويكن فيك ما هو أعظم من الاثنين .

لكنّك لست عظيماً بأفعالك وأقوالك ، كما يخيَّل إليك . فهذه ليست سوى الزبد المتطاير حول عظمتك الحقة .

لستَ عظيماً لأنك فلقتَ الذرّة وأطلقتَ ما فيها من طاقة هائلة . بل الحياة التي كوّنت الذرّة هي العظيمة . وهذه ستبقى سرّاً مغلقاً في وجه عقلك .

لست عظيماً لأنك غزوت الفضاء ورحت تحلم بأن يكون لك موطىء قدم في القمر والزهرة والمريخ وغيرها من الكواكب . فستبقى في الفضاء اللامتناهي شموس ومجرّات وكوكبات

لن تبصرها عينك ولن تطأها قدمك . وستبقى أنت معذَّباً في الكواكب الأُخرى كما أنت معذَّب في الأَرض .

لستَ عظيماً لأَنك اكتشفت الأَرض من القطب إلى القطب ، وذلّلت بحارها ورواسيها ، وسخّرت الهواء والبرق لأَغراضِك . فستبقى في الأَرض ، وفي اللجة ، وفي الهواء ، وفي البرق مجاهل لن تخترقها حتى بخيالك .

لستَ عظيماً لأَنك شيّدت المدن الكبيرة ورفعت قبابها إلى السّحاب ، وزيّنتها بأَروع الحدائق ، والمتاحف ، والمعابد ، والمسارح ومختلِف المتاجر والفنادق والمعاهد . فسيبقى الهيكل الذي هو هيكلك أَروع من كلّ ذلك بكثير . وسيبقى مهندس ذلك الهيكل أَبعد من متنــاول عقلك وسمعك وبصرك .

لستَ عظيماً لأَنك صنّفت سكان الأَرض شعوباً

ودولاً وممالك وأقمت بينها التُّخوم والحدود
والسّدود ، ثمّ رحت تحمي تخومك وحدودك
وسدودك بحد السيف ، وهكذا جعلتَ من
الأرض مسلخاً وساحة جرب وشقاءٍ ، وكنتَ
تريدها مِرْخماً للعافية وسريراً للسلام والهناءِ .
لستَ عظيماً لأنك ملأت آلاف المكتبات
بملايين المجلّدات . فستبقى هناك الكلمة ــ
الكلمة التي لم تنطق بها بعدُ شفتاك ، ولم
تصوّرها بالحروف يداك ، والتي يوم تنطق بها
تستغني عن كلّ ما ألّفت وصنّفت .
لستَ عظيماً لأنك استبدلت قلباً بقلب ،
وعيناً بعين . فسيبقى القلب ذاته قارورة لن
تستطيع جَبْلها في أيّ مختبر من مختبراتك .
وستبقى العين ذاتها آلة يستحيل عليك صنعها
في أيّ مصنع من مصانعك .
لستَ عظيماً لأنك تستطيع أن تحوّل هذا المعدن

إلى ذلك . فلن يتاح لك أبداً أن تخلق المعادن ، أو أن تجعل الأرض تأتيك بالمعدن الذي تشاءُ ساعة تشاءُ .

لستَ عظيماً لأنك ابتدعت ماكينة تحسب في ساعةٍ ما يعجز أكبر رياضيّ عن حسابه في يوم أو في شهر . فستبقى تجهل « الواحد » الذي يتكرّر إلى ما لا نهاية ، ويتجزّأ إلى ما لا نهاية ويبقى واحداً . وستبقى تجهل « النقطة » التي عليها بنيت فنونك الهندسية .

لستَ عظيماً وإن أطلت عمرك إلى الألف والألفين. فالذي يعذّبك ويضنيك في عمرك القصير سيبقى يضنيك ويعذّبك في عمرك الطويل . والعمر عمر . فهو مهما طال لن يستغرق الزمان .

لستَ عظيماً حتى بحنينك إلى الحريّة ، وشوقكَ إلى المعرفة ، وتوقك إلى الخلود . لأنك تطلب الحرية لما يستمدّ وجوده من ذاتٍ غير ذاته ،

فلا يمكن أن يكون حرّاً . وهل يكون الفرس حرّاً إذا كان مقوده في يد الفارس ؟ وتطلب المعرفة من الأَشياءِ التي لا تعرف ، لا من مبدع الأَشياءِ المتسترّ أبداً في خلاياها . وتطلب الخلود لما ليس فيك بخالد . فكأَنك تطلب الخلود لغيمة في الفضاءِ .

لا . لستَ عظيماً بما تقول وتفعل ، وبما تطمح إلى قوله وفعله في دنيا الكثافات والخيالات التي لا تستقرّ على حال . ذلك كلُّه رذاذ من هبات الحياة لك . ولكنك عظيم ، وأيّ عظيم يا ابن آدم ، لأَنك تستطيع أن تحبّ .

ثمّ لأَنك تستطيع أن تؤمن .

ثمّ لأَنك بمحبتك وإيمانك تستطيع أن تعي مَن أنت . وبوعيك من أَنت تعي الحياة .

(لا يكاد الشيخ يلفظ الكلمة الأخيرة حتى يطلّ من باب الكوخ رأس نمر عظيم . وإذ يراه المراسل تجحظ عيناه ، ويفغر فاه ، ويقف الشعر على رأسه وبدنه ، ثم يُطلق صرخة مذعورة ، ويقفز إلى أبعد زاوية من زوايا الكوخ

حيث يتكوّم على ذاته ، ويروح يرتجف ارتجاف ورقة على غصن عصفت به الريح .

يدخل النمر الكوخ متباطئاً ثم يتوقف على بعد خطوات من الشيخ وعيناه على المراسل ، وقد بدا فيهما شيء من الحذر والتحفز) .

ش (إلى النمر) تعال ، تعال يا هنّيبال . لا خوف منه عليك . إنه صديق . تعال واربض هنا بجانبي . هكذا . هكذا . برافو ! برافو ! (إلى المراسل) لا تخف يا ابني . لا تخف . بيني وبين هنّيبال صداقة ما عرفتُ مثلها بيني وبين أيّ إنسان . لقد اعتاد في مثل هذه الساعة أن يأتيني مسلِّماً وأن يقيل عندي بعض الوقت . (يربّت رأس النمر بمنتهى اللطف والعطف ويمضي يكلّمه كما لو كان وإياه من طينة واحدة) :

هذا الرجل الذي تراه في الزاوية يا هنّيبال هو من سكان أكبر مدينة في العالم . وهو أشهر مراسل لأشهر شركة لا شغل لها إلاّ أن تجمع أخبار الأرض وتبيعها من الصحف التي تبيعها بدورها من الناس .

أتعرف ما هي أخبار الأرض يا هنّيبال ؟ ومن

أين لك يا مسكين أن تعرف وقد انتبذتَ من الأرض هذه الغابة الموحشة ؟ أخبار الأرض عند الناس هي ، بالدرجة الأولى ، أخبار الناس ، لا أخبارك وأخبار عشيرتك وغيرها من آلاف العشائر غير الإنسانية التي تقطن الأرض .

إنها أخبار شعوب اقتسمت الأرض بالقوة ، ثم اختلفت على القسمة فراحت تصحّحها بالقوة . ويا ليت قوّتها كانت قوّة عضل أو مخلب أو ناب كما هي الحال بين سكّان الغابات والفلوات من غير الناس . ولكنّها قوّة رياءٍ ودهاءٍ ، وقوة مال ورجال ، وقوّة قنابل وصواريخ وأشعة جهنمية تبيد في لمحة الطرف ما استغرقت الحياة أجيالاً وأجيالاً في خلقه . ولو أنّ حجم الأرض زاد مئة ضعف عمّا هو عليه اليوم لما بدّل ذلك شيئاً في اقتتال الناس على الأرض .

إنها أخبار جياع ومتخمين ، ومحكومين وحاكمين ،

ومستبدّين وثائرين ، وأرباب عمل وعاملين ؛
إنها أخبار مشكلات تنتهي إلى مشكلات ، ومعاهدات تُستبدل بمعاهدات ، ومؤتمرات تعقب مؤتمرات ، وكلُّها يحسب أن مصير الكون منوط بمناقشاته ومقرّراته وبياناته .
إنها أخبار أوبئة ومجاعات ، وإضرابات وثورات ، وتهديد ووعيد ، وزلازل وأعاصير وغيرها من النكبات . إنها أخبار تهافتٍ وتكالبٍ وتطاحنٍ على شيء يُدعى المال ، وشيء يدعى السلطان . ولو أنَّ أوراق الأشجار تحوّلت ذهباً وفضة وأوراقاً نقدية ؛ ولو أنّ الناس كلَّهم أصبحوا نوّاباً وقضاة ووزراء لما خفّف ذلك من تهافتهم وتكالبهم وتطاحنهم على المال والسلطان . إنها أخبار جماعة من النمل تحاول أن تصطاد فيلاً في غابة ، أو حوتاً في بحر .
إنها أخبار بيتٍ من المجانين يكتبها مجانين .

وهذا الرجل القابع في تلك الزاوية يا هنّيبال هو واحد منهم . بل هو سيّد من نقل أخبار المجانين . وإنّه لمن حسن حظّك يا هنيبال أنك تجهل القراءة والكتابة .

ولكنّ هذا الرجل يا هنّيبال هو اليوم ضيفنا . وجدير بنا أن نُحسن الضيافة . لقد أضاع المسكين سلطانه على أعصابه . أضاعه في زحمة أخبار عالمه الصاخب وفي سبيل جائزة بمليون دولار . وجاءَ عالمنا ليستردّه . وقد استردّه . فلا يليق بك يا صاحبي أن تفكك أعصابه من جديد . ما قولك يا هنّيبال لو هو تنازل لك عن الجائزة ، وقد بات من الأكيد أنه سيحصل عليها ؟

(يتلفت النمر نحو المراسل ثم يتثاءب . وفيما الشيخ يمسّد رأس النمر تظهر في باب الكوخ أفعى رقطاء طولها نحو المترين وتنساب لتوّها نحو الشيخ فتتكوّر في شكل صينيّة بين رجليه . يعود المراسل عند مرآها فيفغر فاه ، وتجحظ عيناه ، وتركبه الرجفة . أمّا النمر فينظر إليها دون مبالاة . وأما الشيخ فيرحّب بها قائلاً) :

أَهلاً بكليوباترا ! لقد أَضناك الحرّ . فها هو لسانك لا يستقرّ في فمك من شدّة الحرّ . ولكنّ في ثوبك البديع لمعاناً لم أُبصره أَمس . أَلعلَّك نزعت اليوم ثوبك القديم وارتديت الجديد ؟ مبروك . مبروك ! ومَن خاط لك ثوبك الجديد يا كليوباترا ، وأَين ؟ في باريس ، أَم في نيويورك ، أَم في لندن ؟ وكم دفعت ثمنه ؟ مئة دولار ؟ مئتين ؟ خمسمئة ؟ إِنه في الواقع لتحفة وأَي تحفـــة . تحفة بقماشه . وتحفة بأَلوانه . وتحفة بتفصيله وتركيزه . فلا هو يزيد شعرة ولا ينقص شعرة عن قامتك . ولا أَثر فيه لأَي إِبرة أَو خيط ، أَو لأَي حاشية تلتقي بحاشية .

بديع – بديع جدّاً – هو ثوبك الجديد يا كليوباترا . ولا ملكة سبأ في أَوج مجدها لبست ما هو أَروع منه . وتقولين إِنه لم يكلفك فلساً واحداً ؟

أمّا في شرعي يا كليوباترا فالذي فعلتِه ـ إذا صدقت الحكاية ـ كان أكبر نعمة للناس إذ انه سلك بهم طريق المعرفة الذي هو طريق الاختبار . فأنت تعرفين ـ وحكمتك مشهورة في الناس ـ أن الطفل ، إذا نهيته نهياً عن أمرٍ من الأمور ، عمله في السر إن لم يكن في العلانية ، ليختبر بنفسه نتيجة عمله على نفسه . حتى إذا ارتدّ فيما بعد عن ذلك العمل كان ارتداده نابعاً من معرفة واقتناع ، ومن وازع في نفسه ، لا من الخوف ، ولا من إرادة فوق إرادته .

العصيان والمشاكسة والتمرد صفات ملازمة للإرادة الطفلة ، القاصرة ، الجاهلة أن هناك إرادة فوق كل إرادة . وهذه تقضي الخبرةُ والحكمة وحب البقاء بمطاوعتها لا بمعارضتها . لأنها لا تُعارَض . إنها إرادة الجسد الكامل

بالنسبة لإرادة عضو واحد من أَعضائه

لا بأس يا كليوباترا . فسيدرك الناس يوماً ما يجهلونه اليوم . وإذ ذاك لعلَّهم يذكرونك بالبركات لا باللعنات ، ولعلَّهم يقيمون لك التماثيل .

(عندها يدخل الكوخ غزال تشعّب قرناه ، والتمع جلده ، واشرأبّ عنقه ، ودقت قوائمه ، وتدفقت العافية والطمأنينة من عينيه السوداوين ، الواسعتين ، ويمشي إلى حيث الشيخ فيربض إلى جانبه مقابل النمر . النمر يفتح عينيه هنيهة ثم يغمضهما . وبين الفينة والفينة يضرب الأرض بذنبه . يمسّد الشيخ الشعر بين قرني الغزال ويخاطبه بصوت هادىء كلّه حنان)

السلام يا أپولُّو — يا خدين السلام . كيف خالك اليوم وحال العيال ؟ أَرجو أَن تكونوا في خير حال . سلَّمتَ عليّ وعلى كليوباترا وهنّيبال . فكنتَ عنوان اللطف والذوق . ولكنَّ اللياقة تقضي بأَن تسلِّم أَيضاً على ذلك الآدمي الجالس في الزاوية . فهو الآن لاجىء في حِمانا ، وقد ساقته إلينا ظروف غريبة . لقد ضلّ المسكين سبيله في هذه الغابة بعد أَن دخلها بقصد الصيد .

والذي دلَّه علينا لم يكن غير أَرنب صغير كان يطارده فقاده إلى هذا الكوخ واختفى . وهكذا نجا بحياته .

أوَتعرف يا أپولُّو ما هو الصيد في لغة الآدميين ؟ لا ؟ ومن الخير لك أن تعرف ، حتّى إذا ابتُليت بصياد أَطلقت سيقانك للريح ، واختفيت عن بصره بأَسرع ما يمكن . وإلّا أَرداك برصاصة ، ثم حملك إلى بيته وفصَل رأْسك عن جثتك ليعلِّقه في مكان بارز حيث يراه أَصحابه فيشهدون ببطولته . أمّا جلدك فيسلخه ويبيعه . وأَما لحمك فيولم عليه وليمة لعياله وأَصدقائه . هكذا يفعل الآدميّون المتمدّنون .

ألا فاعلم يا صديقي أَپولُّو أَنَّ الصيد عندهم هو هواية غايتها الترويح عن النفس أَوّلاً ثمّ قتل ما يمكنهم قتله من الحيوانات والأَطيار والأَسماك التي يستلذون لحومها ، أَو يتّجرون بعظامها

وريشها وجلودها . وكثيراً ما يقتلون لمجرّد التلذُّذ بالقتل ، والاعتزاز بأنهم أشدّ بأساً ، وأذكى فكراً ، وأوسع حيلة من المخلوقات التي يقتلونها .

لا . لا يخطرنَّ في بالك يا صاحبي أنّ الصيادين هم قوم فقراءُ لا يجدون في بيوتهم ما يأكلون ويشربون ومـا يلبسون ، ولذلك يخرجون إلى البراري ليحصلوا على ما أمكنهم من اللحم والجلد والفرو والريش . إنهم ، في الغالب ، على عكس ذلك بالتمام . وهم لا يخرجون إلى الصّيد إلاّ في ثياب وبأدوات خاصّة بالصيد ، وإلاّ مزوّدين بما لذّ وطاب من اللحوم، والبقول ، والفاكهة ، والحلوى ، وصنوف من المشروب يطيب لهم مذاقُها . أمّا أنت فإذا تذوقتها تقيأت أمعاءك .

إنهم قوم رَكِبهم الضجر من نفوسهم . فلا

يطيقون الجلوس إليها في ساعة فراغ .
ولذلك يؤثرون الهرب منها إلى البرية حيث يجدون أكبر السلوى في تقصّي آثار مخلوقاتٍ لا يعرف الضجر إلى نفوسها سبيلاً ، فيشهرون الحرب عليها تشفِّياً منها . وعندما يظفرون بها يتهللون ويبتهجون ، ثم يمضون عن بطولاتهم يتحدثون .
صوِّر لنفسك يـا أَبولُّو بطولة إنسان يُردي غزالاً ، أَو ثعلباً ، أَو نعامة ، أَو حمامة ، أَو عصفوراً غرِّيداً برصاصة أَو بخردقة !
والأَفظع من ذلك يـا أَبولّو أَن تصوّر لنفسك إنساناً يصطاد إنساناً لا لينتفع بلحمه وجلده وعظمه بل ليرتاح من وجوده الذي يزعج وجودَه !
ذلك الضرب من الصيد هو البطولة البطولة في قاموس الناس . وبخاصة عندما يشتبكون في حروب طاحنة بـدافع ما يدعونه «الذود عن

حياض الوطن » ، أو « الكرامة » ، أو « الحرية » وما أشبه، فكأنَّ هذه أغلى من الإنسان ، وأقدس من الحياة . والبطل البطل هو الذي يصطاد في الحروب أكبر عدد ممكن من الناس ، فإمّا يمزّقهم تمزيقاً ، وإمّا يشويهم شيّاً ، وإمّا يميتهم موتاً بطيئاً بالجراثيم والسموم غير آبهٍ بآلامهم وآلام الباقين في قيد الحياة من ذويهم . وقد كنتُ ، حتّى زمان قريب ، في عداد المشاهير من أولئك الصيادين . فهل تغفر لي حماقتي يا أبولّو ؟

وكيفما كان الأمر فإني أعيذك من الصيادين يا صديقي . وأهنّئك من صميم قلبي لأنك لم تعترض طريقَ ضيفنا الصيّاد الجالس في تلك الزاوية . فأنت ، لو فعلت ذلك ، لما نجوت في الغالب من بندقيته ، ولما كنت معنا الآن .

والغريب في أمر هؤلاء الصيادين يا أبولّو — صيّادي الحيوان والإنسان — أنّهم لا يُسَرّون بشيء

مثلما يُسرّون بأن يذيقوا غيرهم الموت ، وأن يقتاتوا بلحوم الأموات ودمائهم ، في حين أنهم يكرهون الموت لنفوسهم منتهى الكره .

أفلا قلتَ لي يا صاحبي : كيف لمن يزرع الألم أن يجني غير الألم ؟ ولمن يقتات بالموت أن لا يصبح قوتاً للموت ؟

على أنني أؤكّد لك يا أبولّو أنَّ ضيفنا القابع في الزاوية لن يتصدّى لك بعد اليوم بسوء . فإذا اتفق والتقيته سَلِّم عليه ولا تهرب منه .

(يصمت الشيخ ويغمض عينيه وهو لا يزال يمسّد رأس الغزال بيد ورأس النمر بالأخرى . فجأة يظهر في الباب أرنب أبيض الفرو فيقفز قفزة واحدة إلى حضن الشيخ الذي يستفيق من غفلته ويمسك الأرنب بكلتا يديه ويضمّه إلى صدره ويقبّله بين عينيه .

المراسل ينظر إلى المشهد وقد أخذته دهشة بالغة . فراح يتململ مكانه وكأنه يريد أن يقول شيئاً فلا يجرؤ . لكنه ، في النهاية، لا يتمالك نفسه . فينتصب واقفاً ويصيح بأعلى صوته : «هذا هو ! هذا هو ! »

سلوك المراسل الباغت يحدث بلبلة في الجماعة . يزأر النمر وينهض على قوائمه الأربع ، ثم يلقي نظرة غضبى على المراسل ، ثم يتجه نحو الباب فينصرف . فلا تلبث الحية أن تتبعه . ومن بعدها الغزال .ويبقى الأرنب بين يدي الشيخ).

م واخجلي منك ومن رفاقك يا دكتور ! أرجوك ، أرجوك أن تعذرني . لقد أفسدتُ عليهم وعليك وعلى نفسي جلسةً ما أظنّ أنه أُتيح لآدمي قبلي أن يشهد مثلها . إلاَّ أنني لم أتمالك نفسي حالما وقعت عيني عليه . اعذرني . اعذرني . هذا هو . هذا هو .

ش ومَن تعني؟

م أعني الأرنب الذي في حضنك .

ش ألعلَّه هو الأرنب الذي قادك إلى هنا ؟

م هو نفسه .

ش وكيف عرفته ؟

م من خصلة الشعر الأسود في آخر ذنَبه .

ش وماذا تريد منه الآن ؟

م أُريد أن أُمسكه كما تمسكه أنت . وأن أُقبّله بين عينيه كما قبّلته أنت . وأن أُمسّد فروه كما تمسّده أنت . أُريد أن أَلفّه بشغاف قلبي .

ش ولكنّه سينفر منك .

م ولمــاذا ؟

ش لأنه سيشتمّ فيك رائحة الصيّاد ـ رائحة عدوٍّ لا صديق . أفهمت الآن لماذا طلبتُ إليك أن تدفن أدوات الصيد خارج الكوخ ؟

م فهمت . فهمت .

ش أفهمت لماذا أجفل منك النّمر والغزال والحيّة ؟

م فهمت . ولكنّني لم أفهم كيف استأنسوا بك واستسلموا لك . لقد كنتُ حتّى اليوم أحسب اختراعك معجزة . ولكنّها معجزة باتت الآن وكأنها فقّاعة الصابون بالنسبة إلى المعجزات التي أبصرتها بأُمّ عيني . هل في الأمر سِحر ؟

ش إذا كان هنالك سحر يا ابني فهو ليس سحري بل سحر ساحرٍ يدعى

المحبة

وحدها المحبّة تصنع العجائب . وحدها المحبة تملك المفتاح إلى قلب الحياة الفسيح ونظامها السرمديّ .

لقد زوّدَتِ الحياة مخلوقاتها على الأرض بضروب شتّى من السلاح للدفاع عن النفس . ولكنّها جعلت المحبّة أقواها . إنها السلاح الذي لا يُفَلّ ولا يُقهر . أما تذكر أُسطورة الذئبة الّتي أرضعت الطفلَين روموس ورومولوس اللذين بنيا في ما بعد رومة ؟ إنها لأكثر من أُسطورة . إنها رمز المحبة الّتي تتغلب حتّى على الغريزة . وقد رأيت مرّةً بأُمّ عيني أفعى وقطة تحسوان اللبن من قصعة واحدة .

والحيوان يملك الإحساس المرهف بنواياك نحوه . فإذا قابلته ولا سلاح معك إلّا المحبة تخلّى عن سلاحه وقابلك بالمحبة .

م أتعني أننا لا نستطيع أن نفهم الحياة الّتي هي

حياتنا ونظامها الذي هو نظامنا إلّا إذا نحن أحببناها وأَحببناه ؟

ن ذلك ما أَعنيه .

م ومَن منّا لا يحبّ الحياة ؟ نحبّها منذ أَن نولد وحتّى نموت . نتعلّق بها تعلُّق الرضيع بثدي أُمّه . بل أيّ نبتة ، أيّ حشرة ، أَيّ حيوان لا يحبّ الحياة ؟ كلٌّ ما هبّ ودبّ يحبّ الحياة . فما بالنا لا نفهمها ، ولا نفهم نظامها ؟

ن لأَننا لا نحبّها كما يليق بها أَن تُحَبَّ .

م حيّرتني يا دكتور. وهل هناك محبّة تليق بالحياة ، ومحبّة لا تليق ؟

ن أَجل . فكلّ محبة مشروطة هي محبة لا تليق بالحياة . المحبة لا تطيق الشروط .

م وماذا تعني بالمحبة «المشروطة» ؟

ن أَعني أَن لا تتقبّل الحياة إلّا على هواك . فتحبّها إن هي طاوعتك في كلّ رغبة من رغباتك . ولا

تحبّها – أو تكرهها – إن هي عاندتك في أيّ رغبة من رغباتك. تحبّها في يدك خاتم «لبّيك»، ولا تحبّها وصيّاً عليك.

م طبيعي أن أقبل من الحياة ما يرضيني، وأن أرفض ما ليس يرضيني.

ن ذلك الرفض يا بني هو ما تأباه الحياة. فأنت منها وليست هي منك. إنها الأمّ وأنت الطفل. وهي أدرى منك بحاجاتك. إنها المرضع والخادم والمربّية في آن معاً. وقطّ ما كانت رابّة. الرضيع يزعجه أن تلفّه أمّه باللفائف. ويزعجه، إذا هو لوّث تلك اللفائف بأقذاره، أن تبدّلها أمّه بلفائف نظيفة، وأن تغسل القذارة التي على بدنه بالماء والصابون. ويزعجه أن تجرّعه أمّه قطرة من دواء، أو أن تقرص أذنه بعد أن يكبر قليلاً، أو تلفع قفاه بالقضيب كلّما تجاوز حدود اللياقة والسلوك الحسن. إنه

يقبلها مرضعاً ويرفضها خادماً ومربية .

والطفل لا يعرف أَن محبة أُمّه له هي محبّة واحدة لا تتجزأ ولا تعرف الحدود . إنها محبة صافية صفاءَ عين الديك . فإمّا أن يقبلها كلَّها. أَو أَن يرفضها كلَّها .

أَقرب ما تتمثّل فيه المحبة بين الناس محبّة الأُمّ . ولكنها ، على نقاوتها ، محبة ينقصها الانطلاق . ينقصها الامتداد . ينقصها الشمول . فهي تعيش في قفص لا يتسع إلَّا للقليل غير أَولادها . لذلك فهي لن تبلغ أَقصى مداها إلَّا متى حطَّمت قفصها وانفتحت على الكون كلِّه ، فبات الكونُ كلُّه طفلَها الحبيب .أَمّا محبة الرجل للمرأَة ، ومحبة المرأَة للرجل فليست من الصفاءِ والشمول بحيث تستحقّ اسم المحبة .

فهي ، في الغالب ، ثورة في اللحم والدم تؤجّجها شهوة التمتع والتملك والأَثَرة ، وتلازمها أَكدار

كثيرة أبرزها الشك والغيرة وصراع مستمر بين أنانيّتين جاهلتين لا تتزحزح الواحدة فيه من أمام الأخرى قيد أنملة. وتَغنّي الناس بمثل هذه المحبة هو أرخص ما تنضح به نفس إنسان.

م قلتَ إنّ على الطفل الرضيع أن يَقبل أمّه خادماً ومربية لا مرضعاً فقط.

ش هكذا قلت.

م ولكنّنا يا دكتور ...

ش اعذر مقاطعتي لـك. أفلا أرحتني من هـذه الـ «يا دكتور»؟ إنها تخدّش أذني.

م أخاطبك بها تجلّةً واحتراماً. فأنا لا أستطيع أن أنسى مَن أنت ومن أنا.

ش أحبُّ إليّ بكثير أن تخاطبني بقولك «يا أخي»، أو «يا صاحبي»، أو «يا صديقي»، أو «يا أبي» – إذا شئت. أمّا لقب «دكتور» فدعه للذين في نفوسهم عطش قتّال إلى العظمة الفارغة. تابع

حديثك .

م أردت أن أقول إنّنا لسنا جميعنا أطفالاً رضّعاً . فبيننا العلماءُ والفلاسفة والفقهاءُ ، وبيننا رجال الدين ورجال الفنّ ، والكتّاب والشعراءُ .

ن حتّى هؤلاءِ وغيرهم من البارزين في مختلف حقول النشاط البشريّ لا يزالون أطفالاً بالنسبة إلى الحياة ومحبّتها الشاملة ما داموا يقبلون منها أشياءَ ويرفضون أشياءَ . فكيف بالدهماءِ ؟

م والأنبياء ؟

ن أُولئك حديثهم حديث آخر . إنهم ، في الغالب ، تلك الصفوة المباركة من الناس الذين وَعوا الحياة الشاملة في آزالها وآبادها ، وفي ما تكثّف منها وما لم يتكثّف ، فأَدركوا أنها منظّمة تنظيماً يتخطى حدود عقلنا وخيالنا ، وأنّ نظامها هو المحبة في أوسع معانيها وأنبل مجاليها .

المحبة وحدها هي ذلك الإكسير العجيب الذي به تتماسك الحياة ، محسوسها وغير محسوسها . والمحسوس منها ، كما سبق وقلنا ، ليس سوى فقاقيع على وجـه محيط اللامحسوس . ولولا هذا التماسك والتجاذب والتلاصق لما كان للحياة أن يتلاشى في رحابها الزمان والمكان ، وأن يغفو في أحضانها الأزل بجانب الأبد وتبقى حياةً واحدة شاملة ، ودون زيادة أو نقصان . والأنبياءُ هم الذين أحبّوا الحياة بآزالها وآبادها ، وبنظامها البديع والمبدع ، محبّةً لا شروط فيها ولا حدود لها . فلم يقبلوها مرضعاً ويرفضوها ممرّضة ومربّية . وهم الذين مثّلوا محبتهم للحياة بالامتثال لنظامها ، لا بأقوالهم فقط بل بأعمالهم كذلك ، فكانوا الخميرة الصالحة التي بها يختمر عجين البشرية على مدى الزمان .

أنقول إنّ خميرة الأنبياء قد فسدت ، وإن رسالاتهم

لم تكن أكثر من صرخة في واد ونفخة في رماد ؟ فما أظنُّ أنَّ الناس تنكَّروا للمحبة في أيٍّ يوم تنكُّرهم لها اليوم .

لا . لم تفسد خميرة الأَنبياء . فالخميرة لا تخمِّر العجين كلَّه دفعة واحدة وفي لمحة الطرف . فكيف بالعجين إذا كان لا أَرطالاً من الدقيق والملح والماء بل آلافاً مؤلفة من الأَجيال البشرية التي لا زال جلُّها في حالة الطفولة ؟ ثمّ كيف بذلك العجين إذا كان القصد منه أن يصبح خبزاً للآلهة ــ خبزاً لا طَعم فيه إلاَّ طعم المحبة الصافية ؟

سذَّج هم الذين يعتقدون أنّ في استطاعة خميرة النبوّة أن تخمّر العجين البشريّ كلَّه في جيل واحد ، أَو في أَلف جيل وجيل . وسذَّج هم الذين ينكرون وجود رجالٍ صالحين ونساءٍ صالحات في الأَرض أَخذت خميرة النبوّة تفعل

فيهم فعلها .

أولئك الصالحون والصالحات هم اليوم وفي كل يوم أحوج ما تحتاج إليهم الإنسانية المعذّبة . فلا الثروة ، ولا القوّة ، ولا العلم ، ولا الدّين في مفهومه التقليدي بقادرة أن تخفف من أوزارها ، أو أن تخرج بها من الشّباك التي حاكتها لها مفاسدها وجهالاتها .

الثروة دون الصلاح فقر مدقع والقوّة دون الصلاح ضعف مهلك . والعِلم دون الصلاح جهل مطبق . والدِّين دون الصلاح ضلال مظلم . لذلك كان الصالحون ثروة البشرية وقوّتها ومنارتها والمبرّر لأديانها .

الصلاح لا يتبجّح ، ولا يحيط ذاته بهالات المجد والشرف ، ولا ينفخ لذاته بالمزمار . فإذا هو فعل ذلك انقلب إلى ضدّه . ولكنه يعطر الأرجاء من حوله أينما وُجد كما تعطر البنفسجة

أو الزنبقة حقلاً من الشوك والهشيم .

والصلاح لا يكون إلّا حيث تكون المحبة .

م ما دامت المحبة نظام الحياة ، فكيف تفسّر وجود النُّظُم البشرية التي تنضح بكلّ شيء إلّا المحبة ؟ ألعلّ الناس أقوى من الحياة ؟

ش بالطبع لا . ولكنّ الحيـاة أباحت للإنسان أن ينحرف عن نظامها .

م إذن ما بالها تؤدّبه كلّما انحرف ؟

ش ليعرف أنه انحرف فيصحّح اتجاهه .

م أما كان في وسعها أن لا تبيح للإنسان الانحراف عن نظامها فلا تضطرّ إلى تأديبه ؟

ش بلى . ولكنّها لو فعلت ذلك لبقي الإنسان طفلاً ، وبقي يجهل نفسه ويجهلها ، ويجهل نظام حياته الذي هو نظامها . وأيّ والدة تريد لطفلها أن يبقى طفلاً إلى الأبد ؟ ومثلما لا يعرف الطفل إرادة أمّه إلّا إذا هو عاندها ، وإلا إذا هي

أدّبته كلّما عاندها ، هكذا لا يعرف الإنسان إرادة أمه الحياة إلّا إذا هو عاندها فأدّبته على عناده .

ولكنّ الثمن الذي تبتزّه الحياة من الإنسان لقاء معرفته لإرادتها هو ثمن باهظ جدّاً . والإنسان مُكرَه على دفعه أقساطاً متباينة وعلى مدى عمره – طال أو قصر . وهو يدفعه عَرَقاً من جبينه ، ودماً من قلبه ، ودمعاً من عينه ، وآهاتٍ من صدره ، وهموماً وغموماً وشكوكاً في دماغه . يدفعه أرقاً وحزناً وقلقاً وتشتّت ذهن ووجدان . يدفعه وجعاً في كلّ مغرز إبرة من بدنه . يدفعه أملاً جهيضاً يدفعه خوفاً مستمرّاً من الذّل والفاقة والحرمان والموت . وينتهي بأن يدفعه موتاً زؤاماً .

أفما كان للحياة ، وهي الأُمّ الرؤوم ، أن تمنح الإنسان المعرفة دون أن تكلّفه دفع

ذلك الثمن الفاحش ؟

ش الذي أَراه يا ابني هو أَنَّ المعرفة تأتيك دون جهد منك هي معرفة لا قيمة لها . فكيف بتلك المعرفة إذا كانت معرفتك لنفسك وللحياة الأَزلية - الأَبدية التي تعمل فيك ؟

كيف بها إذا كانت ستكشف لك كلّ ما أُغلق في وجهك من أَسرار الكون ؟

كيف بها إذا كانت ستعتقك من دفع ما فرضته عليك ثمناً لها ؟

كيف بها إذا سلَّطتك إلى الأَبد على كلّ ما يتسلَّط عليك اليوم - حتى على الموت ؟

كيف بها إذا جعلتك - وأنت الجدول الصغير - بحراً لا شطوط له كما هي الحياة بحر بغير شطوط ؟

كيف بها إذا فكّتك من قيود الزمان والمكان ؟

كيف بها إذا كانت ستنتهي بك إلى اللانهاية ؟

ما أَظن أن أيّ ثمن ، مهما بلغ ، يبدو غالياً

في سبيل معرفة كهذه المعرفة .

م هذا صحيح إذا صحّ ما تقول .

ن لست أَدّعي العصمة . إني أَبعد الناس عن ذلك . ولا أنا أَدّعي ، كما سبق وقلت ، أَنَّ الحياة قد ائتمنتني على أَسرارها . ولكنني أَنطق بما يوحيه وجداني .

صدّقني يا ابني أَنّ المعرفة التي أُكلّمك عنها هي وحدها المعرفة . ولا قيمة لأَي معرفة عداها إلا على قدر ما تدنينا منها . وأَنت لن تجدها في الكتب ، وفي المدارس ، وفي المختبرات ، وفي المصانع ، وفي المتاجر ، وفي الأَزقّة المكتظة بالناس وحركاتهم وشهواتهم ومشكلاتهم.

م وأين تجدها؟

ن في قلبك ساعة ينقى من أدران الأَرض .

م كما نقيَ قلبك في تلك الليلة التي حدثتني عنها؟

ن أجل . كما نقيَ قلبي في تلك الليلة .

م ذكّرتني قول صاحب المزامير : «قلباً نقيّاً اخلُق فيّ يا الله» . وقول الناصري : «طوبى لأنقياء القلوب لأنهم يعاينون الله» .

ش ونِعِمّا القول .

م أتعني هذه الـ «نعمّا» أن الحياة التي تحدثني عنها والله الذي تُحدّث عنه الأديان هما في الواقع واحد ؟ فكلاهما روح أزليّ ، أبديّ ، كائن في كلّ مكان ، عليم بكلّ شيء ، وقدير على كلّ شيء . وإذ ذاك فلماذا تصرّ على استعمال كلمة «الحياة» وتتحاشى كلمة «الله» ؟

ش لأنّ كلمة «الله» على ألسنة الناس وفي أذهانهم باتت تعني أموراً كثيرة غريبة عن الحياة .

الحياة لا تستوي على عرش في مكان يدعى السماء . إذ ليس في الفضاء ما هو سماء وغير سماء . والحياة تملأ الفضاء .

الحياة لا تتجبّر بجبروتها ، ولا تعتزّ بملكوتها .

إذ ليس ما هو قبلها أو بعدها ، أو فوقها أو تحتها ، وما هو لها وما ليس لها . فهي الكلّ وفي الكلّ .

الحياة لا ينافسها منافس يدعى إبليس ، فلا هي تقهره ، ولا هو يقهرها . فهي وحدها لا منافس لها ولا نقيض .

الحياة التي منها الإنسان لا تحصر همّها في الإنسان ، فتحصي عليه في سجلٍّ كلّ حركة من حركاته ، وسكنة من سكناته ، وكلّ كلمة من كلماته ، حتى وكلّ نفَس من أنفاسه لتدينه عليها في حياته وبعد دهور من مماته . فهذه جميعها محصيّة تلقائيّاً بفضل النظام المقيم في داخل الإنسان وخارجه . وهو نظام الحياة الذي لا مهرب منه للإنسان وغيره من الكائنات . وهذا النظام هو السجل المدوّن فيه كلّ ما كان ، وما هو كائن ، وما سيكون . هو الذي يدين

الإنسان في كلّ لمحة من وجوده أينما كان ـ في هذه الدنيا أو في سواها .

الحياة تحنو على الإنسان ، مثلما تحنو على كلّ ما فيها ، حنوّ المرضع على الرضيع . فهي محبّة صافية لا يمكن أن تشوبها ذرّة من الكره ، أو الغطرسة ، أو التشفّي وحب الانتقام . فإن هي أدّبت كان تأديبها محبّة . وإن هي أطعمت ذاتها من ذاتها كان إطعامها محبة كذلك .

الحياة لا تذلّ بنيها ، وبخاصّة الإنسان ، فتجعله يستجديها ، ويتمرّغ على أعتابها ، ويسترضيها بالقرابين والضّراعات ، ويتعبّد لها تعبُّد المملوك لمالكه . بل هي تريده أن يعي نفسه وعياً كاملاً كيما يعيها وعياً كاملاً . حتّى إذا وعى نفسه ووعاها انهارت في ذهنه حدود الزمان والمكان واتّحد بالحياة اتحاداً لا انفكاك بعده .

الحياة لا تأبه بالتسبيح والتمجيد . وتأبه

بالنية الصالحة ، والضمير الحيّ ،والقلب النقيّ .
الحياة ليست ربّ الجنود في حروب النـاس بعضهم ضدّ بعض .
الحياة لا تختار شعباً من شعوب الأَرض فتجعله شعبها المفضَّل ؛ ولا لغة من لغات الأَرض فلا تنطق إلّا بها . فكلّ الشعوب شعوبها ؛ وكلّ ما في الكون حروف في أَبجديّتها التي لا تُحَدّ.
الحياة لم تخلق العالم من العدَم ، وفي ستة أَيّام لتستريح في اليوم السابع . بل خلقَته من ذاتها التي لا بداية لها ولا نهاية فكان هو كذلك بدون بداية أَو نهاية . والحياة لم تنقطع قط عن الخلق . فخلقها مستمرّ ما استمرّت هي . فهناك عوالم تفتّتت منـذ ملايين السنين ، وعوالم تتفتّت ، وعوالم في طور التكوين .
وأَخيراً فالحياة يا ابني هي وعي قبل أَن تكون أَرضاً أَو سماءً ، ودنيا أَو آخرة ، ولاهوتاً أَو

ناسوتاً ، أو أيّ شيء آخر .

م أَسمعك تُكثر من ترديد كلمة « وعي ». فهل لي أن أعرف ما تعنيه بها ؟

ش لست أعني غير ما تعنيه أنت عندما تقول « أنا ». فأنت حين تفكّر في هذه الكلمة ، أو حين تتلفظ بها ، ترسم في ذهنك صورة لعالم له شكله وحجمه ، وله ماضيه وحاضره ، وله علاقاته مع عوالم أُخرى تشبهه في وجوه كثيرة وتختلف عنه في وجوه كثيرة . تلك الصورة هي صورة وعيك للعالم الذي هو أنت ، أو للوجود الذي هو وجودك .

ولأن شكلي وحجمي غير شكلك وحجمك ، وماضيّ وحاضري غير ماضيك وحاضرك ، وعلاقاتي مع العوالم الأُخرى غير علاقاتك ؛ فعالمك غير عالمي ، ووعيك لوجودك غير وعيي لوجودي . فما تشابه عالمان أو وعيان كلَّ التشابه .

ولكنّ هذا الوعي قابل أبداً للتمدّد ، للتوسع . فمتى أصبح شاملاً شمول وعي الحياة لذاتها ذاب من تلقائه في وعي الحياة فأصبح وإياه وعياً واحدًا .

م تقول إنّ الحياة وعي شامل ، كامل ، لأنها تعي كلّ ما كان ، وما هو كائن ،وما سيكون . فهو أبداً منها وأبداً فيها . ثم تقول إن الحياة ، لأسباب نجهلها ، تتكثّف فتغدو مادّة . فالمادة منها ، ولولاها لما كانت . والحياة مقيمة أبداً في المادّة مهما يكن نوعها .

ش صحيح .

م وها هي الصخرة – مثلاً – لا وعي لها . فهل تعطّل وعي الحياة التي فيها ؟

ش لم يتعطل أكثر مما تعطّلت النار في الحطبة . إنه هاجع في الصخرة هجوع النار في الحطبة والشرارة في الزّناد . إنه ، إذا صحّ التعبير ،

ناسوتاً ، أو أيّ شيء آخر .

م أسمعك تُكثر من ترديد كلمة « وعي ». فهل لي أن أعرف ما تعنيه بها ؟

ن لست أعني غير ما تعنيه أنت عندما تقول « أنا ». فأنت حين تفكّر في هذه الكلمة ، أو حين تتلفظ بها ، ترسم في ذهنك صورة لعالم له شكله وحجمه ، وله ماضيه وحاضره ، وله علاقاته مع عوالم أخرى تشبهه في وجوه كثيرة وتختلف عنه في وجوه كثيرة . تلك الصورة هي صورة وعيك للعالم الذي هو أنت ، أو للوجود الذي هو وجودك .

ولأن شكلي وحجمي غير شكلك وحجمك ، وماضيّ وحاضري غير ماضيك وحاضرك ، وعلاقاتي مع العوالم الأُخرى غير علاقاتك ؛ فعالمك غير عالمي ، ووعيك لوجودك غير وعيي لوجودي . فما تشابه عالمان أو وعيان كلّ التشابه .

ولكنّ هذا الوعي قابل أبداً للتمدّد ، للتوسع . فمتى أصبح شاملاً شمول وعي الحياة لذاتها ذاب من تلقائه في وعي الحياة فأصبح وإياه وعياً واحدًا .

م تقول إنّ الحياة وعي شامل ، كامل ، لأنها تعي كلّ ما كان ، وما هو كائن ،وما سيكون . فهو أبداً منها وأبداً فيها . ثم تقول إن الحياة ، لأسباب نجهلها ، تتكثّف فتغدو مادّة . فالمادة منها ، ولولاها لما كانت . والحياة مقيمة أبداً في المادّة مهما يكن نوعها .

ن صحيح .

م وها هي الصخرة – مثلاً – لا وعي لها . فهل تعطّل وعي الحياة التي فيها ؟

ن لم يتعطل أكثر مما تعطّلت النار في الحطبة . إنه هاجع في الصخرة هجوع النار في الحطبة والشرارة في الزّناد . إنه ، إذا صحّ التعبير ،

وعي في حالة اللاوعي .

م هذا كلام يصعب عليّ فهمه .

ش الطفل الرضيع أين وعيه ؟

م الطفل الرضيع لا وعي له .

ش بل إنّ وعيه في وعي أمّه . لكن سيأتيه يومٌ يصبح له فيه وعيه الخاص مثلما لأُمّه وعيها الخاص . وما دام رضيعاً فوعيه في حالة اللّاوعي .

م يلوح لي أنك تؤمن بتدرّج الوعي في الكائنات من الغازات ، إلى السوائل ، إلى الجماد ، إلى النبات ، إلى الحيوان ، فإلى الإنسان .

ش هذا صحيح .

م فهل هنالك ، في اعتقادك ، كائنات أرقى وأوسع وعياً من الإنسان ؟

ش ليس ما يحول دون وجود مثل تلك الكائنات . ففي الفضاء اللامتناهي الذي هو بحر الحياة مجال لأصناف من الكائنات لا تخطر لنا في بال ؛

ومجال ، بالتالي ، لدرجات من الوعي الذي يفوق وعي الإنسان بكثير ، أو ينحطُّ عنه بكثير . ومِن أفدح الخطإِ أن تنظر إلى الأرض كما لو كانت المختبر الأوّل والأخير من مختبرات الحياة .

قبل أن تكون الأرض كانت الحياة . وقبل أن تتكثّف الحياة في الأرض تكثفت في أجرام كثيرة . فماذا يمنع وجود كائنات في تلك الأجرام سبقتنا أشواطاً في الوعي فباتت غير مقيّدة بأجساد كأجسادنا وحاجات كحاجاتنا ؟ وهل إنّ أجسادنا هي أروع ما يمكن الحياة أن تبنيه لتسكن فيه ؟

ثمّ ماذا يمنع وجود أرواح غير مجسّدة في الفضاء – أرواح صالحة وطالحة ؟ أو يمنع الاتصال بينها وبين أرواح الصالحين والطالحين من أبناء الأرض؟ فما أكثر ما تجري مكالمات بيننا وبين أرواح

لا نبصرها ولا نعرفها فنحسب تلك المكالمات هواجس ووساوس ووشوشات باطنية ، ونمرّ بها مرور الكرام !

م أخشى أننا قد أخذنا نجوس أرضاً رملها غوّار . أفليس من الخير أن ننكفيء عنها ؟

ش فلننكفيء.

م سؤال واحد قبل أن ننكفيء .

ش تفضّل .

م ألا تعتقد أن ما ندعوه « وحياً » إنّما يأتينا عن طريق هذه المكالمات السرّيّة التي تجري بيننا وبين أرواح في الفضاء حسبما تقول ؟

ش بلى . ولكم يبدو لي أن الناس ضُروبٌ وضروب من الآلات الموسيقية . فهناك الطبل والصنج . وهناك الساكسوفون والترمبون . وهناك المزمار والناي ، والقيثارة والكنّارة ، والرباب والكمان ، والأُرغن والبيانو ،وغيرها وغيرها مما شاع بين

الناس من آلات الطرب ، وهو كثير .

وهذه الآلات منها المهمَل ، الصّدىء ؛ ومنها الذي تقطّعت أو تراخت أوتاره ؛ ومنها الموقّع أروع التوقيع . وهي لا تعزف من تلقائها . بل لا بدّ لها من عازفين . وطبيعة كلٍّ آلة ثم الحالة التي هي فيها ، تحدّدان العازفَ الذي يعزف عليها . فيكون هذا العازف مصدر الوحي . هكذا يستوحي المجرمُ المجرمين ، والبخيلُ البخلاء ، وعابدُ المال عبّادَ المال ، والفاحشُ الفاحشين ، والنمّامُ النمّامين ، ورجلُ الحرب رجالَ الحرب . مثلما يستوحي الشاعرُ الشعراء ، وطالبُ القداسة القديسين ، والنبيُّ النبيّين . كلٌّ بنسبة وعيه لنفسه ولما تتطلّبه منه الحياة الشاملة ، الكاملة . وفي الفضاء أجواق وأجواق من مختلف صنوف العازفين .

م حديثك يا دكتور . . .

ش عدنا إلى « الدكتور » .

م اعذرني . لساني لا يطاوعني أن أكلّمك بغير هذا اللقب ، أو بدون لقب .

شئتُ أن أقول إنَّ حديثك أنساني الأرنب الذي في حضنك ورغبتي في أن أفيه حقّ جميله عليّ .

ش وكيف تريد أن تفيه حقّه ؟

م أريد ، إذا سمحتَ ، أن آخذهُ معي لأعامله كما لم يعامَل بعدُ أحد من أبناءِ جنسه .

ش (ممسّداً فرو الأرنب) أسمعتَ ما قاله صاحبنا يا سندباد ؟
(الأرنب يجمع أذنيه إلى الأمام كمن يصغي بانتباه)

م سندباد ؟ اسم طريف لرحّالة كهذا الرحّالة .

ش ماذا تقول يا سندباد ؟ تردّ أُذنيك إلى خلف ؟ إذن تجيب بالنفي . تقول « لا » . وها أنت بدأت تتململ بين يديّ فكأنَّ الشوق أخذ يلجّ بك إلى زوجك وبنيك ، وإلى رحلة في الغابة . مفهوم . مفهوم .

م أَرجوك ، قبل أَن تطلقه ، أَن تدعني أَضمّه هنيهة إلى صدري وأُقبّله بين عينيه .

ش تفضّل . إليكه .

(ما إن يأخذ المراسلُ الأرنب حتى يفلت منه ويمضي يقفز دون أن يلتفت إلى الوراء . يبقى المراسل واقفاً مكانه كالمصعوق وكأنه قد خسر معركة) .

لا يصعبنّ عليك يا ابني ما جرى . المحبة لا تُفرَض فرضاً ولغاية في نفس المحبّ تتنصّل منها المحبة .

م ولكنني أَحببته من كلّ قلبي .

ش بل إنك أَحببت جائزة المليون التي مكّنك ، أَو سيمكّنك ، من الحصول عليها .

م يؤلمني يا سيّدي أَن تحسبني رجلاً ماديًّا إلى هذا الحدّ . فأَنا ، في الواقع ، قد نسيت الجائزة . أَنسيتني إيّاها أَنت . أَنساني إيّاها ما سمعته وما رأيته . وبات همّي الآن أَن أَسمع المزيد منك عمّا اكتشفته هنا في خلوتك مع نفسك

ومع الطبيعة

عندي أسئلة كثيرة أودّ طرحها عليك . وأخشى أن يضيق بها صدرك .

ش أبداً . سلْ ما بدا لك .

م أتظنّ أن هروبك من العالم كان لائقاً برجل مثلك ؟

ش ما هربت من العالم . فالعالم كلُّه في هذا الكوخ . ولكنّني استطعت أن أعمل هنا ما كان متعذراً عليّ عمله في العالم .

م ولماذا تعذّر عليك عمله في العالم وكان في إمكانك أن تخلو إلى نفسك في مصيفك البديع كلَّما تاقت نفسك إلى الخلوة . وأن تعود إلى العالم من حين لحين لتخدمه بعلمك كلَّما وجدتَ إلى الخدمة سبيلاً ؟

ش لا . لم يكن ذلك في إمكاني . ولعله لا يستعصي على الذين معدنهم أنقى من معدني ، وعودهم أصلب من عودي .

الفرق شاسع جدّاً يا ابني بين أن تعيش ليل نهار على كتف شلاّل عظيم يصكّ هديره أُذنيك فلا تسمع غيره ، ويشغل منظره عينيك فيحجب عنك كلّ منظر عداه ، وبين أن تسمع ذلك الشلاّل وتشهده لفترة قصيرة ثم تعود إلى بيتك وهديره ومنظره ذكرى لا أكثر .

في هذا الكوخ يا ابني ذكريات لكل ما خبرته في حياتي من شؤوني الخاصة وشؤون الناس . ولكنّها ذكريات لا تهدر ، ولا ترغي وتزبد ، ولا هي تنفجر انفجار البراكين فتغطي ما حولها بالحُمم . لقد بات هذا الكوخ الصغير ، الحقير وكأنه القلعة المنيعة يحاصرها العالم ولكنه لا يستطيع اقتحامها . أو قُلْ لقد بات – وجدرانه وسقفه من القصب وسعوف النخيل – وكأنه الصخرة في بحر العالم تتكسّر عليها أمواجه وترتدّ على أعقابها . أو كأنه المصفاة يمرّ

منها ما تهواه نفسي ويبقى خارجاً ما تـأباه .
لا . ما ضاق كوخي بالناس. وضاق برب الناس .

م لو سمعك المتديّنون والقيّمون على الدين في الأرض لكفّروك ، ولابتعدوا عنك ابتعادهم عن الأجرب والأبرص والمسعور . ولعلّهم كانوا يرجمونك أو يصلبونك .

ش ما عنيت ربّهم الذي في السموات ، والذي يجهلونه منتهى الجهل وتراهم ، مع ذلك ، لا يفتأون يسبّحونه ويمجّدونه .

م إذن أيّ ربّ عنيت ؟

ش عنيت المال .

م ولكنّ المال ليس سوى وسيلة خلقها الإنسان لتيسير معيشته على الأرض . إنه رمز لا أكثر .

ش أنِعم بمخلوق يصبح ربّاً لخالقه !
أنعم برمز يغدو أغلى وأقدس من المرموز إليه !
أنعم بمدنيّة يشيدها الإنسان من مادّة واهية

هي المـال ، وعلى أَساسٍ واهٍ هو المال ، ثمّ يمضي يتبجّح بها ويغالي في تكريمها وفي الحفاظ عليها وكأنّها خَلق فريد ، عظيم !

م هذا غلوٌّ في تقديرك لأَهمية المال .

ش بل هو الغلوّ أن تتعامى عن الدور الرئيسي الذي يلعبه المال في حياة الناس . فأَيّ حاجة من حاجاتهم منذ أن يولدوا وحتّى يموتوا تنقضي بغير المال ؟ ومَنذا يستطيع أن يحصي حاجات الناس ؟ إنها تفوق الحصر . والمال – ولا شيء غير المال – دائب أبداً على خلق حاجات جديدة كيما يمكّن لسلطانه في نفوس الناس . أَجل . خالقٌ هو المال . ولكنّه خالق أزمات ومشكلات تتوالد وتتكاثر تكاثُرَ البعوض في بركة آسنة ، وتكاثر الدود في جيفة نتنة . فمن أزمات النقد إلى أَزمات الأُجور والأَسعار ، إلى أَزمات الصادرات والواردات ، إلى أزمات

البطالة والعمل ، إلى أزمات الدَّين والفائدة ، إلى أزمات الجمارك والضرائب ، إلى أزمات المعاهدات التجارية والموازنات السنوية ، إلى أزمات الحروب والمجاعات . أزمات ، أزمات ، أزمات . والمال من ورائها كلِّها . ما أنت يا ابني بالغريب عن أورشليم . ما أنت بالغريب عن هذه المدنيّة التي تعيش في صميمها . فلماذا تحوجني إلى الكلام عن المال ، ذلك السرطان الرهيب الذي ينهش لحمها وعظمها ، ويمتصّ دمها ، ويوشك أن يقضي عليها ؟

أليس من العجب العجاب أن ترى الناس يتداوون من كلّ مرض إلّا من سرطان المال ؟ بل هم ، على العكس ، يباهون به كلّما اشتدّ فيهم واستفحل . والأبرياءُ منه يتمنّون لو يصابون به. يبدو أنّ المال شرّ لا مناص منه . فلا أستطيع أن أتخيل المدنيّة قائمة بدونه . فلو أنّ ساحراً

ولا كالسحرة ألقى سُباتاً على النـــاس كلِّهم ، ثمّ أيقظهـــم من سُباتهم فلم يجدوا أيّ أثر للمال في جيوبهم وخزائنهم ومصارفهم ، فمن الأكيد أنهم كانوا يُصعقون ، وكانت عجلة المدنية تصاب بالشلل التامّ .

ش ثم كان الناس لتوّهم يمضون في طبع أوراق وسكّ قطع نقدية جديدة .

م أكيد . أكيد .

ش وكانوا يعودون إلى مشكلاتهم المزمنة التي لم تلقَ حتى اليوم أيّ حلّ . لكأنهم لا يستطيبون العيش إلّا في المشكلات وبالمشكلات .

م كلام غريب ، ولكنّه صحيح . وهل عندك ما تقترحه بديلاً عن المال ؟

ش لستُ ساذَجاً إلى حدّ أن أداوي السرطان بمساحيق التجميل . وإذا أنا تكلّمت عن سرطان المال فليس لاعتقادي أنّ المال ، في ذاته ، هو السرطان .

فما من شك في أَن المال حيلة عبقرية لتسهيل تبادل السّلع والخدمات بين الناس . ولكنّها حيلة انقلبت على المحتال كما ينقلب السحر أَحياناً على الساحر . لا يا ابني . ليس المال شرّاً . الشرّ في مستعمل المال . المال لا يملك في ذاته أَن ينفع أَيّ مخلوق أَو أَن يضرّ أَيّ مخلوق . فلو أُتيح لك أَن تجمع كلّ ما في الأَرض من نقد ورَقيّ ومعدنيّ لما خبزتَ منه رغيفاً يسدّ جوع جائع ، ولا نسجت منه قميصاً يستر عري عريان ، ولا عصرت منه قطرة ماءٍ تبرّد لسان عطشان ، ولا بنيت منه مأْوى لإِنسان أَو زريبةً لحيوان .

ولكنّ المال ، بفضل مـا يمثّله من قِيم مادّية ومعنوية ، بات في يد الإِنسان وكأَنه مفتاح السعادة المنشودة في هذه الدنيا وفي الآخرة . لذلك راح الناس يتهافتون على المال ، ويتعبّدون له بأَفكارهم وقلوبهم في الليـل والنهار ،

ويريقون في سبيله عرق الجبين وماءَ الوجه ودم القلب ، ويتملّقونه بمختلف الوسائل ، لا فرق بين حلالها وحرامها ، ويستميتون في الدفاع عنه .

من هنا غطرسة الذين حالفهم المال ، ولو لحين ، وكبرياؤهم وخيلاؤهم. من هنا متاجرهم ومصانعهم وجيوشهم وأَساطيلهم وامتداد نفوذهم وسلطانهم في الأَرض .

ومن هنا حِقد الذين جافاهم المال على الذين حالفهم ، وتململهم ، وقلقهم ، وغمغماتهم ، وهمهماتهم ثمّ انتفاضاتهم من حين لحين .

من هنا الهزّات والثورات والحروب التي لا تنقطع أَخبارها في الأَرض حتّى لتبدو وكأَنها صفة ملازمة لإِنسانية اليوم ومدنية اليوم . أَزمات . أَزمات . أَزمات !

أَلِمِثل هذا جئنا الأَرض ونعيش على الأَرض ؟

م يُخيَّل إلى مَن يسمعك أنك يائس من المدنية ، حتى ومن الإنسانية .

ن من المدنية — نعم . أمّا من الإنسانية — فلا .

م أوَليست المدنية من صنع الإنسان ؟

ن بــلى .

م فكيف تيأس منها ولا تيأس من صانعها ؟

ن لأنها لا تمثّل من الإنسان غير رغوته . وهذه الرغوة قد انتفخت وتضخمت إلى حدّ أن حجبت عن الإنسان صفوته ؛ فبات من الضروري كشحها من أمام وجهه ليبصر صفوته .

م وما هي صفوة الإنسان ؟

ن الحياة ذاتها — الحيــاة الأمّ الكائنة من الأزل والباقية إلى الأبد ، المالئة الزمان والمكان ، العالمة بكل شيء والقادرة على كلّ شيء — تلك الحياة هي صفوة الإنسان .

م وماذا تعتبر جسد الإنسان — رغوةً أم صفوة ؟

ش رغوة .

م وكيف له أن يبصر صفوته بعين من رغوة ؟

ش لن يبصرها بالعين التي في وجهه . ويبصرها بالعين التي في نفسه . وهي العين السحرية التي جهّزته بها الحياة فميّزته من سائر مخلوقاتها على الأرض .

م هل لي أن أعرف شيئاً عن تلك العين ؟ فأنا ما أبصرتها قط ، ولا شعرت بوجودها في نفسي . أم أنها تكون في بعض الناس ، ولا تكون في البعض الآخر ؟

ش بل هي في كلّ إنسان . ولكنّها جليّة في القليل من الناس ، ومغشّاة بأغشية كثيفة في معظم الناس . إنّها عينٌ بؤبؤها المحبّة ، وحدقتها الإيمان ، وبياضها الضمير . هذه العين وحدها تستطيع أن ترى زيف المدنية فلا تبهرها رغوتها .

كلّ ما يعمله الإنسان رغوة في رغوة ما دام لا

يستلهم في عمله المحبة والضمير والإيمان .
وإني لأسألك عن أثر المحبة والضمير والإيمان
في هذه المدنية أين هو ؟
أهو في المال ؟
أهو في العلم والتكنولوجيا ؟
أهو في آبار النفط ، وفي مناجم الحديد والرصاص
والنحاس والفضة والذهب والألماس ؟
أهو في السياسة ؟
أهو في الصناعة والتجارة ؟
أهو في المدارس والكنائس والمساجد ؟
أهو في دور السينما والمقاهي والملاهي ؟
أهو في الراديو والتلفزيون ؟
أهو في الصحف على أنواعها ، ودور النشر
على أنواعها ؟
أهو في المراكب الفضائية ، وفي القنابل
الذريّة والهيدروجينية ؟

أهو في أزقة المدن الصاخبة ، وفي الدساكر الوادعة؟
أهو في ثكنات الجيوش ، وفي ساح الحروب ؟
أهو في المصحّات والمستشفيات وبيوت المجانين؟
أهو في المحاشش والمواخير ؟

هـذه كلُّها يا صاحبي – وإن لَبِس البعض منها المسوح ، وتزيّا بزيّ القداسة ، وتلفَّظ باسم الحقّ والخير والجمال – قد شرّدت المحبة من الأرض ، وجعلت من الضمير سلعة رخيصة ، ومن الإيمان مهزلة. ولولا ذلك لما تمزقت الأرض شرّ تمزيق ، فمـا استراحت يوماً من الشحناء والبغضـاء ، ومن الحروب والكروب ، ومن المجاعات والنكبات .

لولا ذلك لما جُنّ الناس هذا الجنون الذي نشهد في تكالبهم على المال الذي يُفقِر ولا يُغني ، وفي تطاحنهم على السلطان الذي يُذِلّ ولا يُعِزّ ، وفي تهافتهم على القصاع التي تُجيع ولا تُشبع ،

وفي تزاحمهم على الملذّات التي تُميت ولا تحيي .
لولا ذلك لما انجرف النـــاس هذا الانجراف الجنوني بتيّار السرعة في كل شيء . فهم يلتهمون اليوم المسافات بسرعة تفوق سرعة الصوت .
ولو أنهم كانوا يسرعون من البغض إلى المحبة ، ومن اللاّضمير إلى الضمير ، ومن اللاّإيمان إلى الإيمـــان ؛ لو أنهم كانوا يسرعون من رغوة العيش إلى صفوة الحياة لقلنا : نِعمّا السرعة !
ولكنهم يسرعون من الرغوة إلى الرغوة . فسرعتهم رغوة في رغوة .

رغوة كذلك هو تحايل الإنسان على الأرض ليأكل نتاجهـا في أوانـــه وفي غير أوانه .
فالمعروف عن الأرض أنها تمتثل في سلوكها للفصول . فتُنضج الحبوب في أوانها ، والبقول في أوانهـــا ، والثمار في أوانها ليأكل منها الحيوان والإنسان في أوانها .

ولكنَّ الإنسان احتال على الأرض فأخذ حبوبها
وبقولها وثمارها وحفظها في علب من الصفيح ،
وفي أوان من زجاج ليأكلها على مدار السنة .
وراح يفتنّ في تعليب مأكله ومشربه حتى
ليصحّ القول في إنسان اليوم إنه ربيب العلبة
والزجاجة ، وفي مدنيته إنها «مدنيّة المعلّبات» .
أجل . إنها مدنيّة تعيش في العلبة ومن العلبة .

أفكارها معلَّبة ،
أذواقها معلَّبة ،
عواطفها معلَّبة ،
معتقداتها معلَّبة ،
تقاليدها معلَّبة ،
شرائعها معلَّبة ،
أزياؤها معلَّبة ،
عاداتها معلَّبة ،
صحّتها معلَّبة ،

علومهـــا معلَّبة ،
فنونهـــا معلَّبة ،
جمالها معلَّب ،
ضميرها معلَّب ،
إيمانها معلَّب ،
ووعيها معلَّب .

قد تختلف العُلَب والأَواني الزجاجية شكلاً وحجماً ، ولكنّها كلّها علب من صفيح وأَوانٍ من زجاج . كلُّها رغوة في رغوة .
ما لمثل هذا وُجدنا على الأَرض .

م لم أَسمع ولم أَقرأْ بعدُ في حياتي حملة عنيفة على المدنية كهذه الحملة . والذي يجهلك لا يتبادر إلى ذهنه إلّا أن المدنية اقترفت بحقِّك جريمة نكراء ، ولذلك رحت تجلدها مثل هـــذا الجَلْد بلسانك . ولكنني أَعرف مَن أَنت ، وأَعرف أَنك لا تلقي الكلام على عواهنه ، وأَن لسانك

لا يتكلّم إلاّ من فيض قلبك . وقلبك أبعد ما يكون عن الحقد والتشفّي . لذلك هزّني كلامك هزّاً . فهل عندك بعدُ ما تقوله في هذه المدنية؟

ش عندي الكثير ، الكثير . ولكنّني أخشى أن تملّ السماع .

م أرجوك . أرجوك أن تتكلّم . فالملل من كلامك هو آخر ما يمكن أن يتسرّب إلى نفسي .

ش هل خطر في بالك يا ابني أن الحرمان هو دائماً أفعل في تهذيب النفس وتنويرها من التمتّع ؟

م بل كنت أظن العكس . كنت أظن أن حصولك على الشيء الذي تشتهيه هو خير من حرمانك إياه. فمن شأن الحرمان أن يولّد في المحروم عقداً نفسية كثيرة .

ش هذا إذا فُرض الحرمان عليك من خارج نفسك. أمّا إذا فرضته نفسك على نفسك فنتيجته قوّة ومناعة وسلام لنفسك .

الحرمــان يربّي الصلابة والرجولة . والتمتّع يربّي الميوعة والتخنّث ، ومدنيّتنا مدنية مائعة ومخنّثة لأنها لا تطيق الحرمان . فهي تركض ركضاً جنونياً وراء التمتّع بملذّات البطن والظهر ومختلف الملذات الأخرى التي يخلقها لها دهاءُ المال . فملذّات للعين ، وملذّات للأذن ، وملذّات للأنف ، وملذات تخدر الوعي فتصرف الفكر والقلب عن صفوة الحياة إلى رغوتها . والغريب في أمر هذه المدنية التي تكره الحرمان أنها تبتلي به شطراً كبيراً من بنيها . فلا تُلقي بالاً إلى مــلايين الجيــاع والحفــاة والعراة والمرضى والمشوّهين والمشرّدين في الأرض . فكأنهم ليسوا منها بخلّ أو بخمر . وإذا هي تلطفت بالتفاتة إليهم من حين إلى حين فهي التفاتة الرجل الأنيق إلى بثورٍ وثآليل في يديه أو في رجليه ، أو إلى غبار على حذائه .

هكذا تسمع أصواتاً تتعالى هنا وهناك منذرةً بيوم عسير وشرّ مستطير . هي أصوات رجال لهم وزنهم الثقيل في دنيا ما يدعونه «عِلم الاجتماع» و «علم الاقتصاد» . فبَنو آدم يتكاثرون في الأَرض بنسبةٍ تفوق بكثير تكاثر خيرات الأَرض . وإذن فلا مفر من المجاعات . ويا لسوء المصير !

لذلك قام بينهم مَن يدعو إلى «تحديد النسل» كوسيلة إلى تفادي الكارثة . مثلما قام مَن هم أكثر جرأة منهم فنادوا بأَنّ الحرب وحدها هي أقرب الطرق وأكفلها للخروج من المازق. وإذن فالخزي للسلام وصانعي السلام ، والمجد للحرب وصانعي الحرب .

م أما ترى أن تحديد النسل بالطرق العلمية أَو بالحرب بات ، في الواقع ، ضرورة لا مفرّ منها ؟ وإلّا اختنقت الأَرض بسكّانها .

ش   ألا تبّ ما يفترون . ويا ويلهم من أُمّهم الحياة!
ألا قلتَ لي يا صاحبي مَن الذي حدّد ويحدّد
نسل الكائنات في الأرض منذ أن كانت الأرض
وحتّى اليوم ؟
مَن الذي حفظ ويحفظ التوازن بين ذكورها
وإناثها فلا يطغى جنس على جنس ، ولا
ينقرض جنس ويبقى جنس ؟
مَن الذي عالها ويعولها يوماً بعد يوم ، وجيلاً
تلو جيل ؟
ولماذا يطالب الإنسان بتحديد نسله ولا تطالب
بتحديد نسلها الكلاب والذئاب ، والثعالب
والأرانب ، والفئران والجرذان ، والنّحل والنّمل ،
والفراش والخفّاش ، والموز واللوز ، والليمون
والزيتون ، وغيرها وغيرها من الكائنات الحية ،
وهي تُعَدّ بالملايين ؟ ألأنّ الإنسان أقلّ وعياً
وحكمة وإرادة من هذه كلّها ؟ أم لأنه بات

يتّكل على وعيه وحكمته وإرادته لا على وعي أمّه الحياة وحكمتها وإرادتها ؟

م أظن أنّ الافتراض الأخير هو الصحيح .

ش من غير شك . لقد نسي الإنسان ، أو هي مدنيته المعلّبة والمخنّثة أنْسته ، أن الحياة أمّه ما زوّدته بشيء من وعيها وحكمتها وإرادتها ليكبر عليها ويعلمها كيف تسوس مخلوقاتها ، بل ليفهمها وليتعلّم كيف يسوس نفسه .

ونسي الإنسان أن الحياة ما جعلت من العلاقة الجنسية متعة فائقة حبّاً بالمتعة لا أكثر ، بل حبّاً بالنسل وغيرةً عليه من الانقراض ما دامت لها غاية من بقائه . ولقد حدّدت الحياة مواقيت للعلاقة الجنسية بين الكائنات دون الإنسان ، ولم تحدّد مثل تلك المواقيت للإنسان ليتعلّم بالخبرة أنّ من الخير له أن يحدد مواقيته بذاته كيما ينتهي آخر الأمر إلى التغلّب على

شهوته فيصبح سيّد نفسه المطلق .

لكنّ هذه المدنية المخنثة التي تكره الحرمان من أيّ لذّة ، وإن تكن مميتة ، قامت تقول للإنسان :

« لا عليك يا ابن آدم ! تمتّع ما شئت باللذة الجنسية. وإذا ابتُليت من جرّائها بداءٍ ما فعندي لدائك دواءٌ . وإذا خشيت أَن تختنق بنسلك الأَرض فعندي حبوب تبيح لك المتعة وتريحك من النسل .

« لا عليك يا ابن آدم ! عش كيفما شئت وتمتّع بأيّما لذة شئت . فإذا أُصيب أيّ عضو من أعضائك بضرر أو بتلف استبدلنا به غيره أفضل منه . عندنا المختبرات من كل نوع . عندنا أشعة إيكس والراديوم والكوبالت . عندنا المخدِّرات والمنبِّهات . عندنا أحدث المباضع والأَدوات التي لا تخطر لك في بال . عندنا العقاقير التي

باتت أصنافها تتحدّى الحصر . عندنا المصحات والمستشفيات وجيوش من الأطباء والممرضين والممرضات .

«لا عليك يا ابن آدم ! عش كيفما شئت ولا تخشَ انتقام الطبيعة . فالعِلم بات اليوم يكيّف الطبيعة على هواه ! »

م أتسمح لي بالعودة قليلاً إلى موضوع تكاثر الناس والخوف من المجاعة التي تهدّد الأجيال القادمة ؟

ن ولماذا لا ؟ فأنا لا أريد أن أحتكر الحديث .

م يتراءى لي من خلال حديثك أنّ العفّة - وهي الحرمان يفرضه الإنسان على نفسه بملء إرادته - كانت وحدها كفيلة بحلّ مشكلة ازدياد الناس والخوف عليهم من المجاعة .

ن ذلك هو اعتقادي .

م ما قولك لو أضفنا إلى حرمان المتعة الجنسية

حرماناً من نوع آخر ؟

ش أيّ حرمان تعني ؟

م أعني الحرمان من البَطر – بطر الأقوياء والأغنياء ، والمترفين والمتخمين ، بالنسبة إلى الضعفاء والفقراء ، والمعذّبين والجائعين – سواءٌ في ذلك الشعوب والأفراد . فلو أنّ ما ينفقه الأوّلون على الجيوش والتسلُّح ، وعلى التقتيل والتدمير ، وعلى الدعايات والمخرقات ، وعلى الترفُّه والتبرّج ، – لو أنّ ذلك كان يُنفَق على الأخيرين لما كان في الأرض فقير واحد ، ولا جائع واحد . ألا توافقني في ذلك ؟

ش كلّ الموافقة ، ودون أيّ تحفظ .

م ما أنا بالعالِم والمهندس ، ولا أنا برجل المال والاجتماع ، والاقتصاد والسياسة . لكنني أقول بمنتهى الجرأة : أعطني المليارات التي تُهدر في كلّ عام على الجيوش والحروب وتخزين

مـــا تحتاجه الحروب والجيوش من ســلاح ومعدّات ؛
أَعطني الملايين التي يبذّرها المترفون والمتخمون في كل يوم على حفلاتهم ومآدبهم ؛
أَعطني الثروات الطائلة التي تدفعها النساءُ ثمناً لمساحيق تُقبِّح ولا تُجمِّل ؛
أَعطني الأَموال التي تبعزقها الأُمم على دعايات تقطر سُمّاً ودجلاً وبهتاناً ، وأَنا الكفيل بأَن أَجعل حتى الصحارى في الأَرض تدرّ لبناً وعسلاً لكلّ أَبناءِ الأَرض .

ش صدقتَ يا ابني ، صدقت . ما ضاق صدر الأَرض بالناس . وضاقت صدورهم بصدورهم . ضاقت بهم مدنية خلقوها من أَلف شيء وشيء إلاّ من المحبة والضمير والإِيمان . إنها مدنية محبتها في جيبها ، وضميرها في بطنها ، وإيمانها في مختبراتها .

الحياة الشاملة ، الكاملة ؛ الحياة الأُمّ التي منها وإليها كلّ ما في هذا الكون اللّامتناهي ؛ تلك الحياة يا ابني هي المسؤولة أوّلاً وآخراً عن كل حيّ في الأرض . وهي منذ أن كانت الأرض وحتّى اليوم ما احتاجت إلى مساعدين لها في تدبير شؤون الأرض ، ولا هي ، في أيّ يوم من الأيام ، استشارتك ، أو استشارتني ، أو استشارت أيّ الناس في حلّ مشكلة من مشكلاتها . فكلمة «مشكلة» غير واردة في قاموسها على الإطلاق . في حين أنها تكاد تطغى على كلّ ما عداها في قواميس الناس .

لو أن الحياة كانت تعمل عملها بمثل ذهنيتنا لنادت بالويل والثبور وعظائم الأُمور كلّما ثار بركان ، أو هبّ إعصار ، أو تدفق سيل ، أو زلزل زلزال ، أو جفّ نهر ، أو طغى بحر ، أو انطلق شهاب في الفضاء ، أو انكسفت الشمس ، أو

انخسف القمر .

م ومن أين هذه الذهنية في الإنسان ؟ أليست من الحياة ؟ أليس الإنسان من الحياة ؟

ن سؤال خطير . وجوابي عليه هو أن الحياة ، عندما تجسّدت فينا كما لم تتجسّد في أيّ مخلوق على الأرض ، ألقت في نفوسنا بذوراً من وعيها وقدرتها وإرادتها ، وراحت تتعهّدها بعنايتها . حتى إذا نما الزرع ونضج وأعطى أُكُله بتنا من الوعي والقدرة والإرادة وكأننا الزارع وما زرع . إلّا أننا ، قبل أن يكتمل نموّنا بزمان ، أخذنا نحسّ وجودنا – نحسّ شيئاً من الوعي والقدرة والإرادة . فخامرنا شعور باستقلالنا عن الزارع ، ورحنا نتصرّف كما لو كنّا في غنى عن عنايته ورعايته .

بل إننا ذهبنا في غرورنا إلى أبعد من ذلك بكثير . فجعلنا من أنفسنا قيّمين على الزارع

وما زرعه فينا وفي غيرنا من الكائنات حوالينا . ورحنا نسوس الزرع على هوانا . فنسقيه حيناً بالدمع وحيناً بالدم . ونسمّده بالخوف والشك والقلق ، والحقد والشحناء والبغضاء ، وبالجشع والظلم والطمع . وننقّيه من كلّ ما نحسبه خطراً عليه .

هكذا رحنا نُبيد بعضُنا بعضاً ، ونبيد الكثير من شركائنا في الأرض من حيوان وحشرات ونبات اعتقاداً منّا أنها طفيليات كريهة تعوق زرعنا عن النموّ ، وتشوّه جماله ، وتؤخر نضجه . وقطُ لم يخطر لنا في بال أنّ الحياة ما خلقت الذي خلقته إلّا ليتمّم بعضه بعضاً . فلا زيادة فيه ولا نقصان . وليس ما هو أصليّ وما هو طفيلي . وإن يكن هنالك من طفيليات فهي في غرور الإنسان الذي لم يبلغ أشدّه بعد ، وفي محاولته قطف ثمرة المعرفة قبل نضجها .

ولا عجب . فذلك هو شأن الأَحداث والمراهقين في كلّ زمان ومكان . فهم يستهويهم أَبداً أَن يظهروا في عيون أَنفسهم وعيون النـــاس كما لو كانوا أَسياد أَنفسهم وأَسياد العالم .

م ولماذا تسكت الحياة عن تصرّفهم مثل هذا التصرّف ؟

ش لأَنها تعرف أَنهم مهما فعلوا لن يغيّروا حرفاً من نظامها . وكيفما اتجهوا لن يفلتوا من نطاق ذلك النظام . فحرّيتهم ، قبل أَن يبلغوا نضجهم ، هي حرّية العصفور يطلقه الولد من يده وقد ربط رجله بخيط يمسكه بيده .

م إِذن كلُّنا عصافير مشدودة أَرجلها بخيوط خفيّة في يدٍ خفيّة هي يد الحياة الّتي نحسّ وجودها ولا نبصرها .

ش ذلك هو الواقع .

م وإِذن نحن واهمون كلَّما تحدثنا عن حرياتنا وعن

واجبنا المقدّس في الدفاع عنها .

ن ولا شك في ذلك عندي على الإطلاق .

واحدة هي الحرّية يا ابني . وليس هنالك حرّيات كالتي يتحدّث عنها الناس : حرية الفكر . حرية الضمير . حرية الكلمة . حرية التنقل والتجمع وغيرها من نوعها . هذه جميعها مصّاصات لا شيء فيها إلّا الهواءُ يتلهّى بها الرضيع عن ثدي أمّه وعن الصراخ والبكاء . تمويه . تمويه . تمويه .

كيف يكون حرّاً من زمامه ليس في يده ؟

كيف يكون حرّاً من هو مُكرَه في كلّ لحظة من وجوده أن يتكيّف ، رغم أنفه ، بأشياء وحالات وأحداث لا سلطان له عليها ، ولا اختيار له فيها ؟

ما دمتَ تعيش في جسد ما بَنَته حكمتك من موادّ صنعَتها يدك ؛ وما دامت لجسدك حاجات

كثيرة يتحتّم عليك قضاؤها وما هي من تدبيرك ، فأنت عبد جسدك وعبد حاجاته .

وما دامت حاجاتك من الأرض فهي ترتبط أوثق الارتباط بحاجات كلّ ما في الأرض من غازات وسوائل وجماد ونبات وحشرات وحيوان وإنسان ، فلا يمكن أن تستقلّ بها وحدك .

وما دامت الأرض تدور على محورها وحول الشمس فأنت مكره أن تدور معها ، وأن تتقيّد بفصولها شئت أم أبيت .

وما دامت الشمس والكواكب الدائرة في فلكها لا تستقلّ في حركاتها عن حركات عوالم شمسية أخرى لا تبصرها عينك ولا يدركها خيالك ، فحركاتك كذلك لا تستقل عن حركات تلك العوالم ، عرفتَ ذلك أم لم تعرف ، وشعرت به أم لم تشعر .

ما دمت ، بجسدك المتناهي ، قطرةً في بحر

اللانهاية ، فكلامك عن الحرية هذيان في
هذيان ، والحريات التي تنشدها وتذود عنها
رغوة في رغوة .

أمّا يوم يصبح في إمكانك أن تقول للشمس
اشرقي فتشرق ، واغربي فتغرب ؛ وللأرض
كفّي عن الدوران فتكف ، ودوري فتدور ؛
وللريح هبّي فتهبّ ، واسكني فتسكن ؛ وللمطر
اهطل فيهطل ، وانحبس فينحبس ؛ وللزرع
انمُ فينمو ، وانضج فينضج ؛

يوم يصبح في إمكانك أن تكيّف جسدك على
هواك . فيجوع ، أو لا يجوع ، ويعطش ، أو لا
يعطش ساعة تشاءُ . ويأكل ويشرب ، أو لا يأكل
ويشرب ساعة تشاءُ وما تشاءُ . ويتعب ويرتاح
وينام ويقوم حسبما تشاءُ . ولا يحلم إلّا أحلاماً
ترضيك ، ولا يبصر أو يسمع أو يشم غير الذي
ينشرح له خاطرك ، ويموت أو لا يموت ؛

يوم تصبح سيّد نفسك المطلق فتلبس جسداً
ساعة تشاءُ ، وتنزعه ساعة تشاءُ ؛
يوم لا يهزّك فرح أَو ترح ؛
يوم لا يغريك مال ، أَو جاه ، أَو سلطان ؛
يوم لا تشويك نار البغض والحقد والغضب ؛
يوم لا ينكمش قلبك من خوف أَيّ شيء ؛
يوم لا تؤذي فلا تؤذى ؛
يوم لا تُهين فلا تُهان ؛
يوم تحبّ الحياة مثل محبّتها لك –
يومئذ تعرف مَن أَنت . وفي معرفتك هذه تجد حريتك . يومئذ ، لا قبل ، يحقّ لك أَن تتفوّه باسم الحرية القدّوس .

حيث يكون الجهل لا يمكن للحرية أَن تكون . المعرفة وحدها – المعرفة الشاملة ، الكاملة – هي الحرية . والحرية وحدها هي المعرفة . أَمّا بعض المعرفة وبعض الحرية فضرب من العبودية

الغنيّة أبداً بالأزمات والمشكلات والنزاعات ومختلف صنوف الويلات . والحريّة منها براء . وهذه العبودية هي ما تشكوه إنسانية اليوم ، وتحاول التخلّص منها بمدنية شادتها ، وإذا بهذه المدنية لا تزيدها إلّا عبودية فوق عبودية ومشكلات فوق مشكلات .

م عظيمة جدّاً هي هذه الحرية التي تتكلم عنها . ولكنها تبدو لي أبعد من متناول الإنسان . فكأنها مقضيّ عليها أن تبقى حلماً جميلاً لا أكثر .

ن ولماذا يأسك من الإنسان ؟

م لأنه يعيش في جسدٍ حاجاتُه تتكاثر باستمرار وصاحب الحاجة عبد لحاجته .

ن حسب الإنسان أن يتخذ من تلك الحرية هدفاً لحياته . فيبدأ ، وهو في الجسد ، يقلّل من حاجاته الجسدية بدلاً من أن يزيد فيها . ثم حسبه أن يتقبّل تأديب الحياة له بمنتهى الشكر

والرضى ، فيعمل على تنقية نفسه من كل فكرة ونيّة وشهوة تعرقل خطاه نحو الهدف . حسبه أن يوسّع دائماً أبداً في وعيه لنفسه إلى أن يصبح شاملاً شمول وعي الحياة . وإذ ذاك فالحرية لن تمتنع عليه .

م لست أُصدّق أنّ في استطاعة الإنسان ، مهما جدّ واجتهد ، أن يدرك مثل تلك الحرية في خلال عمره القصير على الأرض

ن لو صحّ ذلك لكانت الحريّة أتفه من صدفة على الشاطىء أو حفنة من الزبد على وجه البحر . إذا كان لطفلك أن يدخل المدرسة في الصباح فيأتيك في المساء بدرجة دكتوراه في الفلسفة كان لك أن تعي نفسك والحياة وعياً شاملاً ، كاملاً في خلال عمر واحد مهما طال . وأين شهادة الدكتوراه في الفلسفة من شهادة الحياة لك بأنك اجتزت امتحاناتها كلّها بنجاح ،

فوعيتها كما تعي نفسها ، وأحببتها كما تحبّ نفسها ؟

لا يا ابني . الحياة لا تكلّفك المستحيل . ولا هي أضرمت فيك الشوق إلى معرفتها معرفة شاملة ، كاملة دون أن تعطيك القدرة على تحقيق ما تشتاقه . ولا هي شحيحة إلى حدّ أن تفرض لك سنوات معدودات لتعرفها بآزالها وآبادها . والزّمان كلّه في قبضتها .

طويل هو الزمان يا ابني ، طويل . وكريمة هي الحياة ، كريمة . ولا نفاد لصبرها لأنّ محبّتها لا نفاد لها .

م ولكنك نسيت أنّ الموت لنا بالمرصاد . والموت من تدبير الحياة .

ن الموت ، لو تدري ، هو ظاهرة من أروع الظاهرات في محبّة الحياة لانبثاقاتها - وبخاصّة للإنسان .

م الموت محبّة ؟ ! ! هذا كلام يثقل عليّ سمعه .
فكيف بهضمه ؟ ما أظنّ أنّ الناس ، منذ بدء
الخليقة ، اتفقوا في أمر من الأمور اتفاقهم في
كرههم للموت . لا ، لا يامعلّمي . مهما قدّمتَ
وأخّرت ؛ مهما زيّنتَ لي الموت ، سأبقى أكرهه
حتى الموت .

ش لسوء حظك لا لسوء حظ الموت .

م دعنا من السخرية .

ش ما من سخرية في كلامي . بل كرهك وكره
الناس للموت هو السخرية . إنكم تكرهونه
لأنفسكم ولا تكرهونه لغيركم من الكائنات .
أليس أنكم بالموتِ تحيون ؟ ألستم تذبحون
في كلّ يوم بلايين الطير والحيوان لتقتاتوا
بلحومها ؟
ألستم تستهلكون في كل يوم بلايين الأطنان
من الحبوب والخضار والثمار ؟

ألستم تبنون مساكنكم من ملايين الأشجار
تقطعونها ، وملايين الصخور تحطّمونها ؟
فكيف تباركون موت هؤلاء وتلعنون موتكم ؟
أيكون الموت نعمة ونقمة في آنٍ معاً ؟
ألست تحبّ الحياة ؟

م بلى .

ش إذن عليك أن تحبّ الموت الذي لولاه لما عرفت الحياة .
ومن ثمّ فأنت تحبّ هذه الأرض ومفاتنها .
تحبّ ظلالها وأنوارها . تحبّ طيرها وحيوانها .
تحبّ جبالها وبحارها . تحبّ بقولها وثمارها .
تحبها تتزيّا في كلّ فصل ، بل في كل ساعة
بأزياء غريبة ، عجيبة فلا تدري أيّها الأجمل
والأبهى . أليس كذلك ؟

م إنّي من عشّاق الطبيعة .

ش ولولا الموت لما كان لك أن تعرف الأرض .

م لست أفهم علاقة الموت بمجيئي إلى الأرض .

ن وحريّ بك أن تفهمها في الحال .

لو أن الناس منذ آدم وحتى اليوم لم يمت منهم أحد . ولو أنّ نباتات الأرض وحشراتها وطيرها وحيوانها لم يمت منها شيء لما كان لك أو لي موطىء قدم على سطح هذه الأرض فمن غير المعقول أن تتسع الأرض لهؤلاء كلّهم على مدى ملايين السنين .

أصحيح ما أقول ؟

م صحيح .

ن وإذن فموت غيرك هو فرصة لك . وموتك فرصة لغيرك . وذلك هو منتهى العدل والحق والحكمة .

مدرسة عجيبة هي الأرض يا ابني . وقد أعدّتها لنا الحياة وجهّزتها بمعلّمين لا مثيل لهم بين المعلّمين في مدارس الناس ، وبأدوات لا مثيل لها بين الأدوات التي تُجهّز بها مدارس الناس .

ففي كلّ ما تتناوله حواسّك مما على الأَرض وفي الفضاء معلِّم وكتاب - من ذرّة الرمل حتّى أكبر الكواكب ، ومن وريقة العشب حتّى أعتى أرزة ، ومن البعوضة حتّى الفيل .

كلّ ما في الأَرض وفوقها وتحتها معلِّم عجيب وكتاب عجيب . وما عليك إلّا أن تحسن الانتباه والقراءة ، وإلّا أن تستوعب ولو بعض ما تسمع وما تقرأ .

ربّ نملة تجرجر شعيرة تلقي عليك محاضرات لا تسمع مثلها من أشهر أُستاذ في أشهر جامعة .

ربّ شوكة تفرش طريقك برؤى لم تخطر في خيال أشعر الشعراء .

ربّ نسمة عابرة تتلو عليك من الآيات البيِّنات ما لست تقرأُ مثله في أروع كتاب خطَّته يد إنسان .

لتعرف أيّ الفنّ هو فنّ الطبيعة ، وأيّ الهندسة

هي هندستها ، وأي العلم هو علمها ، وأي الخيال هو خيالها ، وأي الخَلق هو خَلقها ، حسبك أن تتأمل الحشرات المتناهية في الصّغر والأجهزة العجيبة التي جهزّتها بها الحياة لتعيش عمرها على الأرض . فكيف بك إذا انتقلت من المتناهي في الصّغر إلى المتناهي في الكبر مروراً بما بين الاثنين ؟

لعلّك لو فعلت ذلك مرّات في النهار لذُهلتَ عن نفسك ، ولبدَت لك منجزاتك الفنيّة والعلمية ألاعيب صبيانية . أو بدَت وكأنّها بالنسبة إلى الكون كسلحة ذبابة على جبل بالنسبة إلى الجبل .

والذهول عن النفس هو أوّل الطريق إلى معرفة النفس . وإنه لَمِن سوء حظنا أننا فقدنا لذة الاندهاش حتى الذهول عن النفس .

توقّف قليلاً . خفّف من لجاجة الحاجات التي

تهمزك بألف مهماز ومهماز . تنبّه . افتح عينيك وأذنيك . افتح قلبك وفكرك وأشرع أبواب نفسك على مصاريعها . انْسَ ، ولو لدقيقة ، أنك فلان ، وابن فلان ، وأخو فلان ، وعامل أو ربّ عمل في كذا مكان أو زمان . وعندئذ تبدأ تعرف قيمة الأرض معلّماً وكتاباً .

عندئــذ تعرف قيمة الحيــاة ومحبتها وعدلها وحكمتها إذ هي يسّرت لك ولي وللملايين من الناس وغيرهم من المخلوقات أن ندخل مدرسة الأرض . ولولا الموت لما كان لي ولك ولهؤلاء جميعهم أن ندخل ويدخلوا مدرسة الأرض .

م ولكنّ الموت الذي يسّر لنا ، حسب قولك ، دخول مدزسة الأرض العجيبة يعود فيطردنا منها ونحن أبعد ما نكون عن المعرفة الشاملة ، الكاملة التي حدثتني عنها . يطردنا قبل أن تشهد لنا الحياة بأننا وَعَيناها كما تعي هي ذاتها ،

وأَحببناها كما تحبّ هي ذاتها ، أَي محبّة غير مشروطة وغير محدودة .

ش تلك الشهادة يستحيل علينا أَن نحظى بها في دورة واحدة . وإلاّ لكانت أَتفه من التفاهة . لذلك جعلت لنا الحياة من الموت عطلة طويلة بين الدورة والدورة كما جعلت لنا من النوم في الليل عطلة قصيرة من متاعب النهار .

م ولكنّنا ننهض من عطلة النوم وأَجسادنا هي هي . وطباعنا وأَفكارنا وهمومنا هي هي . أَمّا من عطلة الموت فنعود – إذا صحّ أَننا نعود – وليس في أَذهاننا ولا شبه صورة لما كنّاه قبل أَن نموت .

ش بل نعود وفينا الصورة الكاملة لما كنّا عليه قبل أَن نموت . إنها صورة النخلة السامقة في نواة التمرة الصغيرة . إنها الذات. إنها ال «أَنا » بكلّ ما ترسّب فيها من أَعمال وأَفكار وشهوات وتخيّلات

وأَشواق وأَحلام . إنها وعي الإنسان لنفسه .
وهو الوعي الذي تفرّد به الإنسان دون باقي
الكائنات على الأَرض . ينحلّ الجسد بالموت .
أمّا الوعي فلا ينحلّ .

والذي نتلقّاه في دورتنا الجديدة من دروس
بعضها قديم مكرّر ، وبعضها جديد طازج ،
هو التربة والمناخ الضروريان لتفتّح الوعي فينا
أَبعد فأَبعد .

م اعذرني إذا قلت إنني لم أَقتنع بعد بنظريتك
هذه . إنها نظرية لا أَكثر . إنها مجرّد افتراض .

ش عمليّة الإقناع والاقتناع عملية تبدو سهلة أَحياناً ،
وتبدو أَحياناً أُخرى في غاية الصعوبة والتعقيد .
إنها سهلة جدّاً إذا كان وعي الذي تريد إقناعه
قريباً من وعيك ، حتى وإن لم تكن أَنت على
شيء من قوّة الحجّة والبديهة . وهي معقّدة جدّاً
إذا تباعد الوعيان ، حتى وإن كنتَ داهية في

المنطق والبلاغة .

إذا أَنت لم تقتنع بصواب نظريّتي ، فلتكن لك في الأَقل نظرية تقتنع بصوابها .

م كيف لي أَن أَجعل وعيي مثل وعيك ؟ وهل ينمو الوعي كما تنمو النبتة ، أَو كما ينمو الحيوان والإِنسان ؟

ن الوعي لا ينمو أُفقيّاً أَو عموديّاً . ولكنه يتّسع اتساعاً كرويّاً في سائر الجهات كما تتسع فقّاعة الصابون . ولا يبلغ أَقصى اتساعه إِلّا متى بلغ اللانهاية . عندئذ يكون ما يدعونه « الخلاص » . أَمّا قبل ذلك فلا خلاص .

م الخلاص مماذا ؟

ن من الازدواجية . من « أَنا » و « غير أَنا » من الشعور بالانفصال عن بحر الحياة اللامتناهي ومما يرافق ذلك الشعور من كرب ومضض ووجع كلّما حاولنا أَن نتمسك بذلك الانفصال ونعطيه

صفة الديمومة الأبدية فباءت محاولاتنا بالإخفاق.

م وكيف ، في رأيك ، يستطيع رجل مثلي أن يوسّع وعيه حتى تكون له نظريته الخاصّة في وجوده ووجود الكون ؟ فأنا والملايين من الذين يعتبرون أنفسهم «مثقّفين» نأخذ نظريّاتنا عن سوانا . نأخذها جاهزة أو ، كما قلتَ ، «معلّبة» لأننا لا نطيق عناء التفكير المستقل والتمحيص المضني .

ن عندما تأخذك الدهشة من لا نهاية الوجود وعظمة النظام المهيمن عليه في أدق حركاته وسكناته ؛
عندما تغفو حواسك الخارجية فتبصر ما ليس تبصره عينك ، وتسمع ما ليس تسمعه أذنك ؛
عندما يصفو فكرك من هواجس الأمس واليوم والغد ؛
عندما يفلت قلبك من كمّاشة الخوف والحقد والطمع ؛

عندما يستيقظ ضميرك فيحاسبك أدقّ الحساب عن كلّ صغيرة وكبيرة اقترفتَها ضدّ الحياة أُمّك ؛

عندما تنفتح على الكون إلى حدّ أن لا تحسّ أيَّ حاجز أو فاصل بينك وبين أيّ شيء في الكون ؛

عندئذ تعرف أن وعيك قد توسّع في الاتجاه الصحيح ، وكما ينبغي أن يتوسع .

م ذكرتَ الضمير في جملة ما ذكرت . فما شأن الضمير في توسيع الوعي ؟

ن شأن الضمير شأن كبير . فهو أفعل في توسيع الوعي من العقل بكثير . والضمير أوّلاً هو الذي يميّز الإنسان من الحيوان ـ لا النطق ، ولا العقل ، ولا الشكل ، ولا المشي على رجلين .

أما اتفق لك ، ولو مرّة في حياتك ، أن وقفت وجهاً لوجه مع ضميرك ؟

م بلى ، وأكثر من مرة . أذكر منها واحدة سرقت فيها من زميل لي خبراً هاماً جداً وسبقته إلى نشره . فكوفئت بالترقية و « كوفىء » هو بالطرد .

ن وهل استغفرتَه ؟

م لا . لم أستغفره .

ن ولا أنّبك ضميرك ؟

م أزعجني قليلاً ، ولبعض الوقت . لكنني ما لبثت أن أقنعته بأن ما فعلته كان حيلة بارعة ومشكورة في « اللُّعبة » التي هي لعبتنا نحن المراسلين .

ن وهكذا خدَّرته فعاد ونام على حرير .

م إذا اعتبرتَ ذلك تخديراً فكلّ ما يفعله الناس – أو جلُّه – هو تخدير في تخدير .

ن من هنا الفرق يا ابني بين ضمير وضمير . فهنالك ضمائر تستيقظ هنيهة ثم تتخدّر فتعود إلى النوم . وضمائر ، إذا استيقظت مرة بات من المتعذر تخديرها حتى بأقوى المخدّرات .

حتّى الليلة التّي حدّثتك عنها – وأحسب أنني شوّهتها بحديثي – كنت غير بعيد عنك في شعوري وتفكيري .

كنت أنظر إلى الحياة كما لو كانت لعبة ، وأحسبني من أمهر اللاعبين .

كنت أعتبر الحياة سباقاً ، وأعتبر نفسي من أسرع العدّائين .

كنت ألتذّ بعملي ، وأعتزّ بالصيت البعيد الذي جاءني به اختراعي . فقد بات في إمكاني أن أقضي على ملايين الأحياء في مثل لمحة الطرف . وحسبي أنني مكنت بلادي من أن تتبوّأ المرتبة الأولى في سباق التسلّح .

لقد اطمأن بالي إلى الثروة الكبيرة التّي وفرها لي اختراعي ورحت أحسبها حصناً منيعاً ضد غوائل الزمن ، وخزّاناً لا ينضب لإشباع كل رغبة من رغباتي ورغبات عائلتّي .

ثمّ كانت تلك الليلة التي حدث لي فيها ما يشبه الأعجوبة . فقد شعرت بغتة كأنّ سُجفاً كثيفة انزاحت من أمام عينيّ ، وكأن سطامات سميكة انقلعت من أذنيّ . فأبصرتُني في دنيا غير دنياي ، ورحت أسمع أصواتاً لا عهد لأُذني بمثلها . فكأنّ الأرض كلّها بما فيها ومَن فيها كانت تخاطبني بصوت يشبه قصف الرعد :

«مرحى ، مرحى يا دكتور صَنبيم !

«ليهنئك اختراعك !

«لتهنئك شهرتك !

«لتهنئك ثروتك !

«نعِمًا ، نعمًا ، يا جاحد النِّعَم !

«نعمًا يا ابن الحياة الذي انقلب عدوّاً للحياة ! »

م لعلّه صوت ضميرك .

ش أجل . لم يكن الصوت غير صوت ضميري . لقد أفقت بغتة ممّا يشبه الكابوس . بل هو

الكابوس في أفظع مظاهره . وجدتني عرياناً ولا شيءَ يستر سوءَتي ، حتى ولا مئزر من ورق التين . ووجدت كلّ حيّ في الأرض يدلّ عليّ ، ويتفل في وجهي ، ويردّد دون انقطاع :

« مجرم ! مجرم ! مجرم ! »

وراحت تلك الكلمة تصفعني وكأنها أكفّ آلاف من المردة ؛ أو تنشب في جلدي ولحمي وعظمي وكأنها السهام الحادّة وقد راشها عليّ جيش من أبرع الرماة وأقساهم .

ما كنت أدري قبل تلك الليلة أنني باختراعي الرهيب قد اقترفت جريمة سوداءَ ، نكراءَ ضدّ نفسي وضدّ الحياة أمّي وأمّ كل حيّ في الأرض . ولا كنت أدري أنني في كلّ ما فعلت قبل تلك الليلة كنت أخدّر ضميري ، وأنّ الضمير إذا استيقظ كان جلّاداً لا يشفق ولا يرحم .

لَكَم تمنيت في تلك الساعة لو يتاح لي بطريقة

من الطرق، وبأي ثمن ، أن أسترد جهازي من وزارة الحربية فأحطّمه تحطيماً ، وأمزّق خرائطه تمزيقاً ، ثم أضرم فيها النار ، ثم أذرو رمادها للرياح الأربع . ولكن هيهات . فما فات قد فات.

(يطبق الشيخ عينيه ويصمت صمتاً طويلاً)

م لست أذكر أنني عانيت مع ضميري ولا واحداً في الألف مما عانيتَه مع ضميرك . فما السرّ في ذلك ؟ ألعلّني بدون ضمير ؟

ن لا يا أخي . ما من إنسان على وجه هذه البسيطة إلّا يملك ضميراً . والذي أراه هو أن الضمير جرثومة في النفس قابلة للنموّ ، تماماً كما هي نطفة الإنسان والحيوان في رحم الأنثى ؛ أو نطفة الطائر والسمكة والحشرة في البيضة ؛ أو جرثومة الحياة في بذرة النبات .

فهناك الذين ضمائرهم لا تزال في ظلمات الأرحام والبَيض والتراب . وهناك الذين برزت

ضمائرهم إلى النور ، ولكنّهم ما برحوا في عهد الطفولة وعجزها وجهلها وأنانيتها الجامحة .

وهناك الذين تجاوزت ضمائرهم عهد الطفولة فانبرت تحاسبهم وتؤنّبهم من حين لحين ؛ وأقلقهم حسابها وتأنيبها فراحوا يخدّرونها بمختلف المخدرات . هؤلاء هم الكثرة الساحقة في الناس .

وهناك الذيــن بلغت ضمائرهم أشدها فباتوا يكرهون لها المخدّرات . أولئك هم القلّة في الناس . وأولئك هم المعذّبون في الأرض لأنهم يحسّون بشاعات الناس كما لا يحسّها باقي الناس .

الفرق شاسع جدّاً يا أخي بين ضمير إنسان يتلمظ بدم إنسان مثله وضمير متعبّد في صومعته يتحاشى قتل برغوث في فراشه لأنه يرى فيه هيكلاً حيّاً بنته الحياة وقدّسته بحضورها .

م أستنتج من كلامك أن الضمير ، وبالتالي الوعي ، ينموان فينا بنسبة نموّ شعورنا بقدسيّة الحياة في مختلف مجاليها . فهل صحيح ما أستنتج ؟

ن صحيح .

م وأفهم من كلامك أن الضمير المستيقظ ، الضمير الحيّ ، الضمير المرهف ، هو الضمير الذي بلغ من الوعي وحبّ الحياة درجة بات معها يتحاشى إلحاق أيّ أذى بأي حيّ .

ن وهذا صحيح .

م إذن ما قولك بوالد يحبّ ولده الوحيد حتّى العبادة ثم يقتله في سورة من الغضب ؟

ن لقد خدّرت ضميرَه سورة الغضب .

م وما قولك بأخ يدسّ السمّ لأخيه كي لا يزاحمه على تركة أبيه ؟

ن لقد خدّرت ضميرَه شهوة المال .

م وما قولك بأمّ تهجر زوجها وبيتها ورضيعها

لتلتحق بعشيقها ؟

ش لقد خدّرت ضميرها شهوة البهيمة فيها .

م وما قولك بشعب يغتصب ديار شعب آخر ويشرّده منها شرّ تشريد ؟

ش إنه شعب لا ضمير له . أو أنّ ضميره قد تخدّر بشهوة البطش وبالأنانية الجامحة .

م وما قولك بدولة كبيرة تشتبك مع دولة صغيرة في صراع مميت باسم الحريّة ؟

ش إنها دولة تُخدّر ضميرها بمخدرات كثيرة تتبرّأ منها الحريّة .

م ما قولك بدُولٍ تتكتّل ضدّ دول وتخزّن السلاح الرهيب ليومٍ عصيب ؟

ش إنها دُول فقدت ضميرها وفقدت صوابها .

م يبدو ، بعد هذا كلِّه ، أَن العالم الذي نعيش فيه عالم فقد ضميره . أَو أَن ضميره في خَدَر مستمرّ برغم ما يعتزّ به ويغالي في الحفاظ عليه

مــن ديانات وفلسفات ، وعلــوم إنسانية ، ومؤسسات خيرية ، وفنون جمالية . فما أظن أن التاريخ شهد فترة من الذعر والقلق والتشتّت والتمزّق والتهالك على المكاسب والملذّات التي تخدّر الضمير ، وتفقأُ الحصرم في عين المحبّة ، كالفترة التي نعيشها اليوم .

ن حقّ ما تقول يا ابني . لقد سبق ووصفتُ هذه المدنية بأنها «مدنيّة المعلّبات» . وحريّ بي أن أدعوها كذلك «مدنيّة المخدِّرات» . فما أكثر وما أدهى المخدّرات التي ابتدعَتْها لضميرها !

والغريب الغريب في أمر هذه المدنية أنها حرّمت ضروباً . من المخدّرات كالحشيش والأفيون والكوكايين غيرةً منها على سلامة جسم الإنسان. وحلّلت ضروباً لا تحصى من المخدرات التي تفتك أفظع الفتك بإنسانية الإنسان .

حرّمت سرقة الإبرة . وحلّلت الثراء الفاحش يعيش جنباً إلى جنب مع الفقر المدقع . وهكذا خدّرت ضميرها بحيلة بارعة دعتها «الشرعية» . فهناك ، في شرعها ، «ثراء مشروع» و «ثراء غير مشروع» . في حين أن كلّ ثروة فاحشة تتجمّع في يد فرد واحد هي سرقة مفضوحة من المجموع . أو في يد دولة واحدة هي سرقة من باقي الدّول . حرّمت القتل في زمان السلم حتى وإن كان المقتول رجلاً معتوهاً أو موبوءاً ، أو طفلاً رضيعاً ، أو شيخاً على حافّة قبره . وحلّلته في زمان الحرب دون تفرقة بين سليم وعليل ، وعبقري وأبله ، ومجرم وقدّيس ، وكبير وصغير . وجعلت من القتل فضيلة ، ورفعت تلك الفضيلة إلى درجة البطولة وراحت تُغدق عليها المال وأوسمة المجد والشرف . وهكذا خدّرت ضميرها بتعاويذ كثيرة أضفت عليها

بريقاً من التقديس وما هي من صنع روح صالح بل من صنع إبليس .

حرّمت شهادة الزور في محاكمها . وحلّلت الكذب والدجل والبهتان والخداع وذرّ الرماد في العيون في مؤسّساتها الدولية وفي مؤتمراتها ومعاهداتها . وهكذا خدّرت ضميرها بما تحسبه كلّ مؤسسة وكلّ دولة حقّاً مقدّساً في الدفاع عن مصالحها حتّى وإن هي عاكست مصالح المجموعة البشرية بأسرها .

حرّمت الزنا . وحلّلت بيوت الدعارة ومختلف الأساليب الشيطانية لإثارة العاطفة الجنسية . وهذه الأساليب تغزو الأسواق في كلّ يوم . فهي في الأزياء الحديثة المثيرة . وهي على صفحات الجرائد والمجلّات ، وعلى شاشة السينما والتلفزيون ، وفي المقاهي والملاهي ، بل وفي كلّ مكان . وهي مخدّرات فتكها ذريع .

حرّمت عبادة الأوثان . وحللت عبادة المال والسلطان .
حرّمت على إنسان أن يمتلك إنساناً فيتصرّف به على هواه . وحلّلت لمجموعة من الناس دعتها « الدولة » أن تتصرف بشؤون رعاياها كيفما تشاءُ ، إلى حدّ أن تدفعهم إلى حتوفهم برغم أُنوفهم .
حرّمت على الإنسان أن ينتقل من بلده إلى بلد آخر إلّا بإذن مسبق من بلده والبلد الذي يرغب في الانتقال إليه . وذلك حرصاً منها على سيادة البلدين وأمنهما . وحلّلت مثل ذلك الانتقال ، وبدون أيّ إذن ، للخنفساء والحرباء ، ولابن عرس وابن آوى ، وللبومة والوطواط ، وللذبابة والجرادة ، ولكل ما هبّ ودبّ . فكأنّ لهذه جميعها حقّاً في الأرض فوق حقّ الإنسان ، وكأنها أحرى من الإنسان بحرية التنقّل من

مكان إلى مكان .

ولماذا ؟

لأنها خدّرت ضميرها بكلمات برّاقة أفرغتها من معانيها الأصلية فباتت جرباءَ ، جوفاءَ : حرية . استقلال . كرامة . قومية . وطنية . عزّة . مجد . شرف . ديموقراطية . ثقافة . حضارة . مستوى معيشة رفيع . ومستوى معيشة منخفض . حدود وسدود إقليمية في البحر ، وعلى اليابسة ، وفي الجوّ حتّى كبد السماءِ . وقد أضفت على هذه جميعها صفة القداسة ، وجعلتها في حصن حصين من الألسنة والأقلام ، ومن عبث العابثين .

مخدّرات . مخدّرات . مخدّرات .

(يعود الشيخ فيصمت طويلاً) .

م لم أعرف بعدُ في حياتي رجلاً يعلّق على الضمير مثل هذه الأهمية البالغة التي تعلّقها أنت . فلو

أَن الناس ، أَفراداً وجماعات ، راحوا يحاسبون أَنفسهم عن كلّ نيّة ينوونها ، وخطوة يخطونها ، وكلمة يقولونها ، وعمل يعملونه ، كما تريدهم أَن يفعلوا ، لتعطَّلت أفكارهم ، وانعقدت أَلسنتهم، وشُلَّت أَرجلهم وأَيديهم ، فباتوا وكأَنهم في مرتبة واحدة مع الجماد . وما أَظنك تريد للناس أَن يعودوا جماداً .

ش ولأَنّهم لا يحاسبون أَنفسهم ذلك الحساب فستبقى حياتهم مشكلات في مشكلات . يكفيك أَن تقرأ صحف الناس ، وأَن تصغي إلى أَحاديثهم وإذاعاتهم لتعرف أَي خضمّ هائل من المشكلات هو الخضمّ الذي يتخبطون فيه ولا يجدون إلى الخلاص منه سبيلاً .

م وأَيّ بأس في ذلك ؟ فما من مشكلة إلّا كانت تحدّياً للإنسان . ومن شأن هذا التحدّي أَن يفجّر في الإنسان، أَقصى ما في طبيعته من مَلَكات

وطاقات .

ش ولكنّ هذا التحدّي قد صرفه حتّى اليوم عن المشكلتين الأساسيتين اللّتين منهما نقفت وتنقف سائر مشكلاته . وهكذا قضى الإنسان على نفسه أن تبقى حياته مشكلات تؤدّي إلى مخدّرات ، ومخدّرات تؤدي إلى مشكلات إلّا إذا هو صرف همّه إلى حلّ المشكلتين الأوليين .

م وما هما تانك المشكلتان الأساسيتان اللتان منهما سائر مشكلاته ، قديمها وحديثها ، وكبيرها وصغيرها ؟

ش هما مشكلة آدم وحوّاء . ومشكلة قايين وهابيل.

م وأيّ علاقة لآدم وحوّاء ، ولقايين وهابيل بمشكلات إنسان اليوم ؟

ش علاقة السبب بالنتيجة .

م يدهشني ، وأنت مَن أنت ، أن أسمعك تتكلّم

بمنتهى الجدّ عن أُسطورة آدم وحواء . وقايين وهابيل ، وهي أُسطورة دَفَنها العِلم من زمان .

ش من الأَساطير يا ابني ما يتحدّى العلم والموت .

م أَفَلا تلطفت إذن وبيّنت لي بشيء من التبسّط ما تعنيه بمشكلة آدم وحوّاء ، ومشكلة قايين ، وكيف أَن المشكلتين ما تزالان في أَساس سائر المشكلات التي يعاني منها إنسان اليوم ؟

ش دعني أَبدأ أَوّلاً بمشكلة قايين . فهي مشكلة الضمير التي كنّا نتحدث عنها ولمّا ننته . ثم دعني أَسأَلك ، قبل أَن أَبدأَ ، إذا كنت تذكر جيّداً تفاصيل الحكاية .

م أَذكر أَنّ قايين وهابيل كانا الولدَين الأَوّلين لآدم وحوّاء . وأَن قايين كان يحرث الأَرض ، وهابيل كان يرعى الغنم . واتفق ذات يوم أَن قدّم الأَخوان قرابين للرّب : قايين من نتاج أَرضه . وهابيل من نتاج غنمه . ثم اتفق أَن

قبل الربّ تقدمة هابيل . أمّا تقدمة قايين فرفضها لأنّ نيّته لم تكن صافية صفاء نيّة أخيه . أصحيح ما أرويه ؟

ش صحيح لحدّ الآن . وماذا كان بعد ذلك ؟

م كان أن احتدم قلب قايين حسداً من أخيه وغيظاً عليه . فاستدرجه إلى البرية وبطش به .

ش يبدو أنك ما تزال تحفظ شيئاً من الدروس التي تلقنتها في مدرسة الأحد .

م الفضل في ذلك لا يعود إلى مدرسة الأحد وحدها . فقد كانت والدتي امرأة متديّنة جدّاً ، وكانت لا ترتوي من مطالعة التوراة وسرد بعض أخبارها وحكاياتها لنا .

ش ثمّ ماذا كان من أمر قايين ؟

م كان أن سأله الربّ عن أخيه أين هو ؟ فأجاب بمنتهى الخبث : «لا أعلم ! » ثم أضاف : «أَلَعلّي حارس لأخي ؟ » فما كان من الربّ

إلّا أن فضح جريمته بقوله : «صوت دماء أخيك صارخ إليّ من الأرض» . ثمّ لعنه .

ش أحسنت سرد القصّة غاية الإحسان . ألست ترى فيها ، مثلما أرى ، مأساة الضمير الإنساني من أوّلها إلى آخرها ؟

م وخليق بك أن تشرحها لي كما تراها أنت .

ش أما كان من المفروض في قايين وهابيل ، وقد انبسطت لهما الأرض بطولها وعرضها ، أن يتحابّا ويتعاونا ويعيشا في بحبوحة من الأمن والسلام وكأنهما واحد ؟

م بلى .

ش ولكنّ وعي قايين البدائي لذاته المنفصلة حديثاً عن ذات والديه وذات أخيه وذات الله جعله يقيم الفواصل بينه وبين أخيه . وإذا بالحظوة التي نالها أخوه عند الله ، ولم ينل هو مثلها ، توغر صدره حسداً على أخيه فيمضي ويقتله ظنّاً

منه أنه بذلك يخمد نار الحسد في قلبه التي راحت تتأكل قلبه . فأين كان ضميره ساعة فعل الذي فعل ؟

م نعم . أين كان ضميره ؟ أم أنه كان بغير ضمير ؟

ش بل كان له ضمير . ولكنّ الحسد خدّره أولاً . ثم عاد الكذب فخدره ثانية عندما سأله الله : «أين أخوك ؟» فأجاب بقوله : «لا أعلم» . وخدّره ثالثة دفاعه المنافق عن نفسه عندما سأل : «ألعلّي حارس لأخي ؟» وماذا كانت نتيجة التخدير ؟ كانت لعنة . وستبقى اللعنة ما بقي التخدير .

م أتعني أن لعنة قايين لا زالت تلاحقنا حتى اليوم ؟

ش أعني أنّ كلّ تخدير للضمير هو لعنة لصاحب ذلك الضمير . واللعنة ليست كلمة تسمعها بأذنك . ولكنّها ضروب وضروب من الخوف

واليأس والقلق وتشتت الذهن والتمزّق الجسداني
والنفساني . وذلك بنسبة ما يكون التخدير
وتكون الفواجع الناجمة عنه .

م وإذن فالذي تعانيه إنسانية اليوم ليس سوى
لعنة الضمير المخدّر منذ قايين وحتّى اليوم .

ن هذا هو اعتقادي .

م وهل من سبيل لنا إلى إيقاظ الضمير من خدره
لننجو من اللعنة ؟

ن ما عليك ، إذا أنت شئت أن تصحو من خدرك ،
إلّا أن تحسن الإصغاء إلى صوت ضميرك .
فهو لا ينفكّ يقرع أذنيك في كلّ لحظة من
وجودك . في الليل والنهار . في ساعات العمل
وساعات اللهو والراحة . في الحزن والفرح .
في المرض والعافية . في المنام وفي اليقظة
ولكنّ أذنيك مثقلتان بأصوات كثيرة صاخبة فلا
تسمعان «صوت دماء أخيك صارخاً إليك من

الأرض » .

ذلك الصوت يا ابني هو صوت الضمير . صوت الدماء البشرية التي شربتها الأرض ، ولا تزال تشربها ، منذ أن أصبحت مسكناً لسلالة آدم وحوّاء . صوت الجياع والعطاش . صوت الحفاة والعراة . صوت المشرّدين والمنبوذين . صوت المهانين والمظلومين . صوت الأرامل والثكالى واليتامى الذين لا مأوى لهم ولا معيل.

إنّه صوت النفاق والمنافقين ، والخداع والخادعين ، والجور والجائرين ، والفحش والفاحشين ، والحسد والحاسدين ، والنميمة والنمّامين ، والكبرياء والمتكبرين ، والرياء والمرائين ، وكل أصناف المخدّرات والمخدّرين. يا لها من جوقة هديرها ولا هدير البحر . هدير لا ينقطع ليل نهار وهو يردّد باستمرار : «صوت دماء أخيك صارخ إليّ من الأرض » .

وسيبقى هذا الهدير يلاحق الإنسان في كل مكان ، حتى وإن هو استوطن الجوزاءَ والثريا ، إلى أن يصحو من خدره فيشهد أمام نفسه وأمام ربّه :

«ربّي ! لقد عرفتُ اليوم ما كنت أجهله في الأمس . عرفت أنك وحدك الحياة ، وأنّ من حياتك حياتي . وأنك وحدك الوجود وفي وجودك وجودي .

عرفتُ أنك وهبتني الضمير ليكون دليلي إليك . ولكنني ، في غباوتي وفي غروري ، رحت أخدّر ضميري كيلا يكون حجر عثرة في سبيلي إلى تحقيق رغباتي وإلى تثبيت ذاتٍ لي منفصلة عن ذاتك . وقطّ ما دار في خلدي أنّ الضمير لا بدّ أن يصحو من خدره ، وأنه ، إذا صحا ، كان ديّاناً رهيباً .

ربي ! لقد كذبتُ عليك عندما سألتني عن أخي أين هو فأجبتك أنني لا أعلم . وما كنت أدري

أنني بكذبي قد مرّغت نفسي بالوحل والزبل أمام عينك التي تبصر كلّ شيء ، وحاولت أن أخنق ضميري الذي كان يذكّرني بك ويشدّني إليك .

ربي ! لقد أدركت اليوم ما أنكرته بالأمس . أدركت أنني حارس لأخي . وها أنا وأخي نمشي يداً بيد على هدي الضمير الذي لا يهتدي بأيّ نور غير نور المحبة وأنت المحبة » .

م عظيم هو خيالك يا معلّمي . أيخطر في بالك أن الناس سيدركون يوماً كاليوم الذي تتغزّل به ، فيصبح كلّ واحد منهم حارساً لأخيه ؟

ن لكلّ إنسان يومه . فالناس ما كانوا يوماً على مستوى واحد من التفتح الفكري والروحي . دَع غيرك وشأنه ، وابدأ بنفسك . عساك إذا صادقت ضميرك وانقطعت عن تخديره صادقك ضميرك فكفّ عن تقريعك وتأنيبك ؛ وهكذا

أصبحتَ قدوةً لغيرك ومرآة يرى فيها وجهه الأَحبّ إلى قلبه .

م جميل أن يعيش الإنسان في صداقة حميمة مع ضميره . ولكن . . .

ش إني لأفهم هذه الـ « ولكن . . . » . إنها تخدير من نوع آخر . كأَن يقول الواحد لنفسه : « هذا فوق طاقتي . هذا منافٍ للطبيعة البشرية » .

م ذلك بالضبط ما كنت أُريد أَن أقوله .

ش ذلك ما يلجأُ إليه معظم الناس في تبرير ما يصدر عنهم من مآثم ضدّ الضمير . ألا ليت الناس كانوا يعرفون أيّ كائن عجيب هو الإنسان . ليتهم يحاولون سبر أَعماقه وتسلُّق أَعاليه . إذن لأَدركوا أَن تحت أَعماقه أَعماقاً لا قرار لها ، وفوق أَعاليه أَعالي لا حدود لها . فهو صورة مصغَّرة للحياة التي منها انبثق . فإن كانت لطاقات الحياة حدود كانت لطاقاته حدود .

قلت من قبل ، وأُكرّر القول ، إن أضعف ما في الإنسان عقله . ولماذا ؟ لأنه يتّكل في استنتاجاته على حواسّه الخارجية التي هي أضعف حواسّه على الإطلاق . فعند الحيوان ، وعند الطير والهوامّ ما هو أدق منها بكثير وأرهف وأعجب . لذلك بتّ أعتقد أن العقل ، مهما حاول ، لن يبلغ بنا المعرفة لأنه يسلك إليها طريقاً مسدوداً . والمعرفة التي أعنيها ليست معرفة القيود التي تتحكم في سلوك المادّة وسلوكنا معها . بل هي التي تحرّرنا من كلّ قيد ، وتوسّع في وعينا لها إلى أن يصبح شاملاً شمول وعي الحياة أمّنا .

م وهذه المعرفة كيف السبيل إليها ؟

ن سؤالك يردّني إلى مأساة آدم وحواء في الفردوس ـ مأساة الإنسان يحاول أن يغتصب المعرفة اغتصاباً .

م وهي المأساة التي وعدتَ أن تحدثني عنها بعد

حديثك عن مأساة قايين مع ضميره .

ش فلنتحدث عنها الآن .

ما دمت تذكر حكاية قايين وهابيل فأنت تذكر من غير شك حكاية آدم وحوّاء في الفردوس .

م بل أكاد أحفظها عن ظهر قلب .

ش إن تكن تلك الحكاية أسطورة فهي ، في نظري ، أروع أسطورة خلقها الإنسان ليصوّر فيها مأساته مع المعرفة تصويراً لا أدقّ ولا أصدق . ولكن ، قبل أن نمضي في الحديث عنها ، يجدر بنا أن نتوقّف قليلاً لنتفهّم رموزها . فهي كلّها رموز . فالفردوس الذي أعدّه الله لآدم وحوّاء لم يكن ، في الواقع ، جنّة وارفة الظلال ، شهية الثمار . بل كان رمزاً لحالة اللّاوعي المطلق — حالة اللاشعور بالذات — حالة اللّا — أنا التي كان فيها الطفل الإنسان عند ولادته من أمّه الحياة .

أمّا شجرة « معرفة الخير والشرّ » فهي رمز المعرفة

الكاذبة التي تدور في حلقة مفرغة من المتناقضات ولكنّ هذه المتناقضات من شأنها أن تنبّه في الإنسان عقله أوّلاً ـ وهو أضعف ما فيه ـ وذلك بما تثيره من مقارنات واستنتاجات لا نهاية لها . مثلما من شأنها أن تنبّه وعي الإنسان وشعوره بذاته ، وأن تقسم عالمه إلى عالمين : «أنا» و «غير أنا» . ولأنّ هذه المعرفة ليست معرفة فهي تؤدي في النهاية إلى لا شيء – إلى الموت الذي هو موت «أنا» الموهومة .

وأمّا شجرة «الحياة» فهي رمز المعرفة الكاملة ، الشاملة . رمز وعي الحياة لذاتها . وهذه المعرفة لم يكن للإنسان أن يتذوّقها ويعرف بالغ حلاوتها قبل أن يتذوّق المعرفة الكاذبة ويعرف بالغ مرارتها .

وأمّا الحيّة التي أغرت حواء وآدم بالأكل من الثمر المحرّم فلم تكن سوى صوت عقل الإنسان

وقد أثاره حبّ الاستطلاع ، حب الكشف عن المجهول عساه يصبح عارفاً كلّ شيء كما هو الله : « في يوم تأكلان منه تنفتح أَعينكما وتصيران كآلهةٍ عارفي الخير والشرّ » .

كأَني بالله عندما نهى الإِنسان الأَول بشطريه المذكّر والمؤنث عن الأَكل من ثمار شجرة معرفة الخير والشر خاطبهما هكذا :

«يا آدم ويا حوّاءُ !

ذات من ذاتي أَنتما ، وعلى صورتي وكمثالي . لكنكما طفلان تجهلان كلّ شيء . وأنا أُريد لكما أَن تعرفا نفسيكما وتعرفاني لأَفرح بكما وتفرحا بي . فالمعرفة وحدها هي الفرح الأَكبر الذي لا يدانيه فرح . إِنها الغبطة بالوجود الذي تتلاشى في رحابه المتناقضات كلُّها . فلا فوقُ ولا تحت ، ولا قبلُ ولا بعد ، ولا شرّ ولا خير . ولقد جهّزتكما بكلّ ما تحتاجان إِليه لبلوغ

المعرفة – حتى بحرّيـــة الاختيار . عساكمــا بالتجربة تهتديان إلى الطريق الأمثل المؤدّي إلى المعرفة المثلى .

وها أنا أضعكما اليوم على مفرق طريقين كلاهما يؤدّي إلى المعرفة . أحدهما طويل جدّاً ، ومتعرّج جدّاً ، وشائك جدّاً . ولكنّ في منعطفاته وبين أشواكه من بديع المناظر والرياحين ما يدفع السائر فيه على السّير أبعد فأبعد . فلا ينتهي إلى المعرفة . بل ينتهي إلى الموت .

ذلكما هو طريق معرفة الخير والشرّ . إنه طريق مسدود . إلّا أنه ، بالنتيجة ، يؤدّي إلى المعرفة عندما يقنط منه السائر فيه فيعود يفتّش عن الطريق الآخر . وأنا أحذّركما منه لأنكما ، إن سلكتماه ، فسيكون اتكالكما على نفسيكما لا عليّ .

أمّا الطريق الثاني فأقصر من الأوّل بكثير . وليس فيه من المغريات مثل ما في الأول . والذي

يسلكه لا يتّكل على نفسه بل عليّ . لذلك كان سلوكه أشقّ من سلوك الأوّل . لأنّه ينطوي على التنازل عن «أنا» الموهومة التي على هديها يسير سالك الطريق الأوّل فلا يزداد غير ضلال فوق ضلال .

وإني لأعلم أنكما ستختاران الطريق الأوّل لأنّه يبدو أكثر إغراءً من الثاني بما يثيره من اعتزاز في نفسيكما باستقلال ذاتكما عن ذاتي وباتكالكما على نفسيكما لا عليّ .

ولأنكما ستفعلان ذلك فالفردوس الذي كنتما فيه سيصبح محرّماً عليكما . وشجرة الحياة التي في وسطه لن تتذوقا ثمارها حتى تعودا من طريق الخير والشرّ – طريق الاتكال على عقليكما – إلى طريق الاتكال عليّ وحدي .

لقد أنذرتكما من فرط محبّتي لكما . ولكما أن تصدقاني أو لا تصدّقاني » .

م	ولم يصدّق آدم وحوّاءُ الله .

ن	لا . لم يصدّقاه .

م	ولذلك ابتُليا بالموت .

ن	أجل . بموت الذات التي هي من ذات الحياة ولكنّها باتت تعتقد أَنها منفصلة ومستقلّةٌ عن ذات الحياة .

م	قلتَ إنّ الطريق الأَوّل – طريق معرفة الخير والشرّ – هو طريق العقل . فماذا تدعو الطريق الثاني – طريق أيّ طاقة أُخرى غير العقل من طاقات الإِنسان ؟

ن	الطريق الثاني هو طريق

الايمان

م	يدهشني من رجل مثلك أَن أسمعه يضع الإِيمان في مرتبة أَعلى من مرتبـــة العقل بكثير .

وعهدي بالإيمان أنه ملجأُ الضعيف المغلوب على أمره . فحيثما تلكّأ عقله في حلّ مشكلة من مشكلاته ارتدّ إلى الإيمان في الحال وخدّر خيبته بقوله : «تلك هي مشيئة الله . ولا مردّ لمشيئته . توكلت على الله » .

ٮ لا تهزأ يا ابني بإيمان أي إنسان – حتى بإيمان السّاذَج والغبيّ . إلاّ إذا كان إيماناً يثرثر به اللسان ولا يمسّ شغاف القلب من بعيد أو من قريب .

حيث ينتهي العقل يبدأ الإيمان .

والإيمان نوعان : أعمى ومبصر .

أمّا الإيمان الأعمى فهو الإيمان الذي يبعثه الخوف في نفس المؤمن . الخوف من قدرة بطّاشة يجهلها فيؤمن بها ، وينسحق أمامها ، ويسترضيها بمختلف القرابين والضراعات ليأمن جانبها عساها تعطيه أشياءَ وتردّ عنه أشياءَ .

ذلك الإيمان هو أضعف الإيمان . ولكنه خير من اللّا إيمان .

الخوف والإيمان لا يجتمعان . ولعلّ أسخف قولة شاعت على ألسنة الناس هي قول سليمان الحكيم : «رأس الحكمة مخافة الله» ولو أنه قال : «رأس الحكمة محبّة الله» لكان أقرب إلى قلب الحقيقة وقلب الله .

وأمّا الإيمان المبصر فهو وليد التأمل العميق في بحر الحياة اللّامتناهي ، الكائن من الأزل ، والباقي إلى الأبد ، والذي منه وفيه كلّ محسوس وغير محسوس بما في ذلك الإنسان بجسده المكوّن أروع التكوين ، وروحه الغنيّ بالمواهب التي تفوق الحصر والتقدير

فمن شأن مثل ذلك التأمّل أن يفتح قلب الإنسان للحياة فتملأه محبة ، وأن يفتح فكره لمعجزاتها فتملأه دهشة . ومن شأن تلك الدهشة أن تحمل

الإنسان حملاً على الإقرار بعجز فكره عن تفهّم معجزات الحياة وعن فكّ طلاسمها . ومن المحبّة والدهشة يولد الإيمان المبصر .

م تمنّيت لو تتوسّع قليلاً في الحديث عن هذا الإيمان المبصر . فهل هو يعني التخلّي عن العقل ؟

ن أبداً . ولكنه يعني التخلّي عن عنجهية العقل وادعائه وخيلائه . والعقل ضمن حدوده نعمة وأيّ نعمة . ولكنه حالما يتعدّى حدوده يصبح نقمة وأيّ نقمة . إنها النقمة التي جلبت الموت لآدم وحوّاءَ وذريتهما .

م يلوح لي أن ما تدعوه الإيمان المبصر يحتّم على الإنسان التنازل عن إرادته .

ن بالطبع .

م وما قيمة الإنسان وقد نُزعت منه إرادته ؟ إنّه والحيوان سيّان .

ش أن تتخلّى عن إرادتك قسر إرادتك أمر مهين للغاية . أمّا أن تتنازل عن إرادتك بإرادتك فأمر مشرِّف للغاية .

وأنت ، لو كان لك الإيمان المبصر ، لما استطعت إلّا أن تتنازل عن إرادتك لإرادة الحياة أمّك لأنها فوق كلّ إرادة . وعندئذٍ لا تصبح بدون إرادة . بل تصبح إرادة الحياة إرادتك .

الإرادة دون المعرفة خبط عشواء . والمعرفة لا تكون معرفة إلاّ إذا هي ألمّت بكل ما كان وما هو كائن وما سيكون في بحر الحياة الذي تشابك فيه كلّ شيء تشابك الخيوط في نسيج لا أوّل له ولا آخر .

الحياة وحدها تملك تلك المعرفة . الحياة وحدها تعرف كلّ خيط في نسيج الكون اللّامتناهي لذلك فالحياة وحدها تملك الإرادة في توجيه خيوط النسيج التوجيه الصحيح .

وأنت عندما تقرّ بجهلك وتعترف بمعرفة الحياة يتولّد فيك الإيمان المطلق بمقدرة الحياة على تصريف شؤونها التي من ضمنها شؤونك . وإذ ذاك يمتلىءُ قلبك حبّاً للحياة ، وثقة بحسن تدبيرها ، وبأنها أحنّ عليك من نفسك ، وأدرى بحاجاتك منك . فتلقي اتكالك عليها ،وتتنازل لها بملء إرادتك عن إرادتك .

ويوم يتملكك حب الحياة ، ويتملكك الإيمان بعصمتها عن كلّ خطإٍ أو زلل ، يومئذ تستسلم لها بكلّ جوارحك ، فتضمك إليها ، وتفتح لك قلبها ، فلا يبقى أيّ فاصل بين وعيك ووعيها ، وإرادتك وإرادتها . وبكلمة أخرى ، لا يبقى أيّ فاصل بينك وبينها .

م لَكأنّي بك تطلب إلى الإنسان أن يستسلم بكليته إلى الحياة ، فيكفّ عن كلّ نشاط ما دامت الحياة أدرى بحاجاته منه .

ش	بل على الإنسان أن يعمل ما دامت له الطاقة على العمل . وهو لا يستطيع إلاَّ أن يعمل . هكذا أرادته الحياة . ولكن عليه أن يعمل مؤمناً بأن الحياة هي العامل لا هو . وأن لا يعمل حبّاً بثمرات عمله . بل حبّاً بالحياة ذاتها التي تعرف وحدها كيف تستثمر نتاج عمله لخيره وخير غيره من أبنائها في كلّ مكان .

م	لم أسمع بعد في حياتي حديثاً عن الإيمان كهذا الحديث . فهو يجعلني أفكّر بسكّان هذه الأرض الذين يدّعون ضروباً وضروباً من الإيمان وتراهم ، مع ذلك ، في بلبلة دائمة ، وفي غليان مستمرّ . فكأن إيمانهم زيت يصبّونه على نيران شهواتهم وأحقادهم المتأجّجة صباحَ مساءَ وفي كلّ الفصول .

ش	ذلك الإيمان هو عدوّ الإيمان . إنه إيمان الشفاه دون القلوب . كلّ إيمان لا يقوم على الوعي والمحبة هو تخدير للإيمان . والإيمان المخدَّر

هو أشدّ خطراً على الناس من العقل المخدَّر والضمير المخدَّر .

م	طال حديثنا يا معلّمي . وأخشى أن أكون قد أرهقتك . إلاّ أنه حديث كاد آخره يُنسيني أوّله . كدت أنسى الأرنب الذي قادني إلى هذا الكوخ وعظيم فرحتي بالاهتداء إليك .

ش	ولكنك ما نسيت الجائزة .

م	ما نسيتها . ولكني أودّ الآن أن أنساها . أودّ أن أنسى أعصابي ، ومهنتي ، وعائلتي ، وبلادي . أودّ أن يكون لي إيمانك . أودّ أن أبقى إلى جانبك .

ش	ما أظنك تستطيع أن تحيا حياتي .

م	سأُحاول .

ش	حاول إذا شئت .

م	ولكنني ، قبل أن ابدأ محاولتي ، أُريد أن أروي حكايتك للعالم .

ش	لتُشبع فضول العالم ؟

م	بل لأُثير جوع الذين مثلي .

ش	وماذا تعني بالذين مثلك ؟

م	أعني الذين يحسبون أنفسهم شباعاً وهم في الواقع جياع . ما كنت أعرف قبل اليوم أن شبعي كان جوعاً . وأنني أُعاني من قلة التغذية – أو بالأحرى من سوء التغذية – الشيء الكثير .

ش	وكيف تريد أن تروي حكايتي للعالم وأنت منقطع معي عن العالم ؟

م	آ ! (يحك رأسه ويصمت طويلاً)

ش	لعلّه من الخير لك أن تعود إلى العالم أوّلاً . فلا شك أنك قد اشتقت كثيراً إلى زوجك وأولادك ، وإلى أصدقائك وزملائك .

م	هناك ، في الواقع ، علاقات كثيرة كنت أودّ تصفيتها . ولكنني ، إذا عدت ، أخشى أن تهرب منّي هذه الحالة النفسانية التي أنا فيها

الآن .

ش إذا كانت حالةٌ سريعة الزوال فمن الخير أن تزول .

م لا . لا . لست أريدها أن تزول . لست أريد أن أمثّل دور الحمار في الحكاية .

ش أيّ حمار وأيّ حكاية ؟

م ألا تذكر حكاية الحمار المحمّل مِلحاً كيف سقط في الماء فذاب حمله واستراح منه ؟ لقد كان حديثك ذلك الماء الذي أذاب حملي . ولك أن تصوّر شعوري وقد انعتقت من أثقالي .

ش ولكنّ الحمار في الحكاية يعود مرّة ثانية وعلى ظهره حِمل من الإسفنج ، فيرتمي في الماء ظنّاً منه أن حمله سيذوب كما في المرة الأولى ، وإذا به يغدو أثقل مما كان أضعاف الأضعاف .

م ذلـك ما أخشاه إذا أنـا رجعت إلى العالم بعد انقطاعي عنه ما يقارب السنة .

ش أتعني أنك منذ مجيئك إلى هذه الجزيرة لم تتصل قطُّ بذويك وبشركتك ؟

م جاءتني منهم رسائل . أمّا أنا فلم أكتب ولا رسالة لأحد .

ش إذن ما أدراك أنهم ليسوا قلقين على مصيرك ؟ ولعلّهم يأتون إليك إذا أنت لم تذهب إليهم .

م بل ما أدراني كيف يفسّرون انقطاع أخباري عنهم ؟ على كلّ حال سأفترض أنني عائد غداً . فهل تسمح لي أن أروي للناس ما دار بيني وبينك اليوم ؟

ش هذا إذا استطعت أن ترويه .

م سأحاول جهدي . لقد خصّني الله بذاكرة غريبة . لعلها أكبر العون لي في عملي .

ش على أن لا تبوح بالمكان الذي أنا فيه فتطلق عليّ زنابير الصحافة والإذاعة والسينما والتلفزيون في مشارق الأرض ومغاربها .

م أعاهدك بأنني لن أبوح بذلك .

ش حتى وإن فاتتك الجائزة ؟

م حتى وإن فاتتني الجائزة . فحسبي الجائزة التي منحتني إياها اليوم .

عرفتُ لماذا تركتَ العالم . ولكنني لم أعرف كيف تركته دون أن تخلِّف وراءك أيّ أثر يُستدلّ به على وجهة سفرك . أم لعلك هربت من البلاد دون جواز سفر ؟

ش بل خرجت منها بجواز مزوَّر . وهي المرّة الأولى أرتكب فيها التزوير فلا يبكتني ضميري . ذلك لأنني أعتبر جواز السفر إهانة ما بعدها إهانة للإنسان – تاج الخليقة في الأرض .

تبّاً لهم يبيحون الأرض لسائر سكّان الأرض دون الإنسان ويحرّمونها على الإنسان ، وذلك تحت ستار الدفاع عن مصالح بلدانهم الطاهرة وصيانتها من أذى المهرّبين والمخرّبين

والمتلصّصين والمتجسّسين على أسرارها السياسية والحربية ، ومن الأفكار التي قد تزعزع الركائز التي عليها يقوم بنيانها .

تبّاً لهم يقيّدون أرجل الناس بالسلاسل ويجعلون تنقّلهم في الأرض مشقّة ومذلّة . ولو استطاعوا لكانوا يقيّدون أفكارهم كذلك فلا تتلاقح عبر الأثير . ولكنهم لا يستطيعون .

تبّاً لهم يسيّجون أنفسهم بمختلف الشرائع . وإذا بسياجاتهم تنهار باستمرار . ولكنهم لا يعتبرون .

تبّاً لهم ينفثون سمومهم في كلّ جوّ ثم يعجبون أنهم يختنقون .

تبّاً لهم يحوّلون الأرض ضرباً من «سْكتلانديارد» ويجعلون من حياة الناس على الأرض رواية من روايات «شرلوك هولمز» .

إي وربّ الأرض . ما لمثل هذا كانت الأرض .

ولا لمثل هذا كان الإِنسان على الأَرض .

م   شكواك تؤلمني يا معلِّمي لأَنها صادقة . ويؤلمي بالأَكثر أَنها ستبقى نفخة في رماد وصرخة في واد .

على أَنني ، إذا صحّ وعدتُ إلى العالم ، أُريد منك رسالة إلى العالم .

ش   تريد نفخة في رماد وصرخة في واد ؟

م   بل أُريد أَن لا أَتفرّد بما متّعتَني به اليوم . فلست أَشك أَنّ في العالم أَكثر من جائع واحد مثلي . وهذه الرسالة ، إذا تكرّمت بها ، سأَلتقطها كلمة كلمة من فمك . ففي جعبتّي قلم ودفتر .

(الشيخ لا يرد في الحال ويغمض عينيه ويغرق في تأمل عميق. ينهض المراسل ويأتي بعد قليل بقلم ودفتر من جعبة الصيد المدفونة بالأوراق خارج الكوخ . ثم يجلس حيث كان بجانب الشيخ ويستعدّ للكتابة)

ش   ليكن كما تريد . اكتب :

يا ابن آدم !

تاريخك لم يُكتب بعد .

وهو لن يُكتب حتى تكون لك المعرفة الكاملة .
والمعرفة الكاملة هي معرفة ما كان ، وما هو كائن ، وما سيكون من أمرك مع الحياة أُمّك ،
ومع نفسك ،
ومع كلّ منظور وغير منظور في الفضاء .
فكلّ ما كان يرتبط أوثق الارتباط بكل ما هو كائن .
وكلّ ما هو كائن لا ينفصل أبداً عن كلّ ما سيكون .
فلا أزلٌ بدون أبد .
ولا أبدٌ بدون أزل .
على ذاتها تدور قافلة الزمان .
وأوّلها مقطور أبداً بآخرها .
كلّ رفّة جفن
هي حلقة موصولة الأسباب والنتائج بما قبلها وبعدها من الحلقات في سلسلة الزمان

اللامتناهية .
ومعرفة السلسلة الكاملة
هي المعرفة الكاملة .
وقبل أن تكون لك تلك المعرفة
فتاريخك حكايات عجائز ،
وثرثرات أطفال ،
ودبيب نمل
في الرمال .

يا ابن آدم !
مغبوط أنت ، وأيّ مغبوط .
لقد أحبّتك الحياة أمّك إلى حدّ أن جهّزتك بكل
ما تحتاجه لبلوغ المعرفة .
فهي ما ولدتك لتتسلّى بك ،
بل لتتجلّى فيك .
وهي تريدك أن تصبح مثلها :

واعياً كلّ ما كان ، وما هو كائن ، وما سيكون ؛
طليقاً من أحابيل الزمان وقيود المكان ؛
مالكاً كلّ شيء ، وغير مملوك لشيء ؛
شاملاً لا مشمولاً ؛
خالقاً لا مخلوقاً ؛
وفوق الخير والشرّ .
ولأنّ طريق المعرفة طويل ، طويل ،
وعسير ، عسير ،
فقد فسحت لك الحياة أقصى ما تحتاجه من
الزمان لاجتيازه –
حتّى ملايين السنين –
وجعلت اجتيازه على مراحل .
ولكنّك لَجوج ، يا ابن آدم ، وأيّ لجوج ، –
وذلك هو شأن الأطفال والجهّال في كلّ زمان
ومكان –
فأنت تريد أن تختصر المراحل كلّها في مرحلة

واحدة ،
وأن تقفز إلى المعرفة الكاملة في خلال سنوات
معدودات ،
وإذ لا تُدركها وتدرك الموت الزؤام
تعود فتثور على الحياة أُمّك ،
وتكفر بالنِّعَم التي أسبغَتها عليك ،
وتنسى أنها أَحبّتك محبّتها لذاتها ،
وأنها جعَلت لك من الموت نهاية مرحلةٍ وبداية
مرحلةٍ في طريقك الطويل ، العسير
وثورتك على أُمّك هي العقوق بعينه .

يا ابن آدم !
حذار من الأُلفة .
كأن تألف الأشياء فلا تَدهش لشيء .
كلّ ما في الأَرض وفوقها مدهش وعجيب –
عجيب منتهى العجب .

وقد تكون أنت – بجسدك وروحك – من أعجب
ما في الكون .
فحريٌّ بك أن تعيش في دهشة دائمة .
وحريٌّ بدهشتك أن تفتح لك الباب إلى قلب
الحياة الفسيح .
أمّا متى فارقتك الدهشة
فقد فارقك الأمل بولوج قلب الحياة .
وهكذا حكمتَ على نفسك بأن تبقى خارجاً ،
وتبقى غريباً .

يا ابن آدم !
لقد صرفَتك الدهشة بأعمالك
عن الدهشة بأعمال الحياة أُمّك .
وأعمالك ، لو تدري ،
زبَد متطاير على وجه بحر حياتك ،
وأكبرها أصغر من أصغر أعمال الحياة .

أفلا خفّفتَ من خيلائك ،
ومن ادعائك ،
ومن كبريائك ؟
أفلا تواضعتَ قليلاً ،
وطأطأت رأسك ،
وتخشّعتَ ،
وتورّعت ؟

يا ابن آدم !
إن دنيا أوّلها مَهد وآخرها لحد
لدنيا تهزأ بملك الملوك ،
وقوّة الأقوياء ،
وعظمة العظماء ،
وثروة الأثرياء ،
وعِلم العلماء ،
ولا تميّز بين الخاصّة والدهماء .

وإنها لتسخر بخصومات الناس ،
لا فرق بين كبيرها وصغيرها .
وهل أدعى إلى الشفقة
من جماعة محكوم عليهم بالإعدام
يتشاجرون ويتناحرون
في سبيل النّطع الذي عليه سيُعدَمون ،
أو الحبل الذي به سيُشنقون ،
أو اللّحد الذي فيه سيُلحدون ؟
وكان حريّاً بهم أن يتصافحوا ، ويتعانقوا ، ويتعاونوا
لعلّهم إلى النجاة يهتدون .

يا ابن آدم !
لَئن سلكتَ مسالك النجوم في أَبراجها ،
والرياح في جوائها ،
والحيتان في بحارها ؛
ولئن ملأتَ أهراءك بالخيرات ،

ودماغك بالأرقام والمعادلات ،
وأترعتَ عينيك وأذنيك بمختلف المغريات ،
وأطلتَ عمرك حتّى الألف والألفين ،
فلن تزيد مثقال ذرّة في هنائك ،
ولن تخفّف مثقال ذرّة من شقائك
ما دمتَ عرضة للخوف من أي شيء ،
وما دمت تفرح وتحزن ،
وتغضب وترضى ،
وتحبّ وتكره ،
وتنخدع وتخدع ،
وتجوع وتشبع ،
وتَحسد وتُحسد ،
وتقنع وتطمع ،
ثم تنتهي بأن تردّ النفَس في صدرك
إلى الفضاء الذي منه جاءَ .
وستبقى حالك كذلك مع الحياة أمّك

إلى أن تعود فتعترف في قرارة نفسك
بأنها الأمّ المُحبّة ،
وأنك الطفل الحبيب ،
وأنها المسؤولة عنك
لا أنت عنها .
لعلّك إذ ذاك تكفّ عن رعونتك
فلا تحاول تسييرها حسب إرادتك ،
بل تسايرها حسب إرادتها .
فإرادتها إرادة العارف كلّ شيء .
وإرادتك إرادة الجاهل كلّ شيء .
وإرادة العارف هي وحدها الإرادة المبصرة .
أمّا إرادة الجاهل فإرادة عمياءُ .
وهي وبال على صاحبها وأيّ وبال .
ولأنك جاهل يا ابن آدم
فإرادتك وبال عليك .
ولا خلاص لك منها

إلَّا بالتنازل عنها
ريثما تبلغ سنّ الرشد ـ
رشد الحياة الواعية ، الشاملة ، الكاملة ،
لا رشد الإنسان المصفَّد بأصفاد اللحم والدم ،
والزمان ، والمكان ،
والخير والشرّ .
وعندئذ تصبح إرادة أُمّك إرادتك .

يا ابن آدم !
حيث الموت بالمرصاد
لكلّ ما يولد وينمو ،
ولكلّ ما تصنعه يداك ،
ويعتزّ به عقلك ،
وتضحك أو تدمع له عيناك ،
جدير بك أن تفتّش عمّا لا يموت .
حتّى إذا اهتديت إليه

تمسّكتَ به تمسُّك الغريق بخشبة النجاة ،
وتمسُّك الأعمى بذيل دليله .
الحياة لا تموت .
المحبّة لا تموت .
الضمير لا يموت .
الإيمان لا يموت .
والذات التي هي أنت لا تموت
حتّى وإن ذابت في النهاية
في ذات أمّك الحياة .
ففي ذوبانها حياتها .

(يتوقف الشيخ عن الكلام فيتوقف المراسل عن الكتابة . ويطول صمت الاثنين) .

م انتهيت يا معلّمي ؟
ش انتهيت . ويا ليتني لم أبتدىء .
م أمّا أنا فتمنيت لو أنك لا تنتهي .
ش كلام . كلام . كلام وتبقى الكلمة التي يُحسّها

الوجدان ولا يستطيع أن ينطق بها أيّ لسان .
كلام . كلام . كلام .

م لكنّ من الكلام ما ينبض بالحياة نبضاً . فهو غير الكلام المومياء .
أتدري يا معلّمي أنّ كلامك لن يمكّنني من تأدية رسالتك إلى العالم ؟

ش وكيف ذلك وقد طلبتَها بإلحاح ؟

م لأنني قرّرت عدم العودة إلى العالم . قررت فكّ رباطاتي بالعالم مهما تكن نتيجة قراري على الذين خلّفتُهم في العالم . لي أُسوة بك .

(يفتح الشيخ فاه ليتكلم وإذا في الباب ثلاثة رجال . اثنان في زي غربي يتناسب والمناخ الاستوائي . وفي كتف كل منهما بندقية حربية . وعلى خصره مسدّس في غلاف من الجلد . والثالث من أهل الجزيرة . حاسر الرأس . حافي القدمين . وعلى وسطه مئزر من جلد . يبقى الشيخ برهة فاغر فاه . وقد جحظت عيناه . ومثله المراسل . ويبقى الثلاثة في الباب وكأنّهم تسمّروا مكانهم) .

ش تفضلوا .

م (يقفز من مكانه إلى أحد الرجلين المسلّحين ويأخذه من كتفيه ويهزّه هزاً عنيفاً)

مارْتِنْ ! إني ، وربّي ، لسعيد بأَن أراك . ماذا جاءَ بك إلى هنا ؟

مارتن بل ماذا جاءَ بك أَنت إلى هنا ؟

م جئت لأَستشفي .

مارتن وأَنا جئت لأَشفيك من استشفائك .

م (إلى الشيخ) هذا الرجل يا معلّمي هو أَبرز رجال الاستخبارات السرّية عندنا وأَقدرهم على الإِطلاق. (إلى مارتن) قل لي الصحيح : ماذا جاءَ بك إلى هنا ، وكيف اهتديت إلى هذا الكوخ ؟

مارتن هداني هذا الدليل . فهو يعرف أن رجلاً مسنّاً أَبيض يعيش منذ مدّة في هذه الغابة . والذي دفعني على المجيء إلى هذه الجزيرة لم يكن غير زوجتك أَوّلاً ، والمهنة ثانياً .

فقد جاءَتني زوجتك تشكو انقطاع أَخبارك عنها نحو السنة . وأَخبرتني أنك جئت هذه الجزيرة النائية . والبلاد ، كما تعلم ، في قلق كبير

من جراء اختفاء الدكتور صنبيم ذلك الاختفاء المفاجىء والمحيّر إلى أقصى حدّ . فلم يكن من الصعب علي أن أجمع بين اختفائك واختفائه . وقد صحّ حدسي . فها أنت والدكتور صنبيم في كوخ واحد . وها أنت تكتب وهو يملي عليك . لقد اصطدنا عصفورَين بحجر واحد .

م وما أدراك ما كنت أكتب ؟

مارتن ذلك أمر سينظر فيه غيري . فهو يتعلّق بأمن الدولة وأسرارها العسكرية التي من أهمّها اختراع الدكتور صنبيم . ولدى الدائرة – دائرتنا – أوامر مشدّدة بإلقاء القبض عليه وردّه إلى بلاده حيّاً أو ميتاً . فهو متّهم بإفشاء أسرار أمن الدولة للعدوّ . وهي الخيانة العظمى ، وبمغادرة البلاد بجواز مزوّر . ولن تنجو أنت من تهمة التواطؤ معه .

م مارتن ! أيّ هراءٍ هذا الهراءُ ؟! الدكتور صنبيم خائن؟ ! ! لعلّه أشرف رجل يمشي على سطح

هذه الأرض .

مارتن هذا قول ليس من شأني نفيه أو تثبيته . ومن شأني تنفيذ الأوامر التي لديّ . وإني لأنصح لكما بعدم المقاومة ، فلا فائدة منها .

م ولكنني أريد أن أشرح لك . . .

مارتن اشرح لغيري . لا تضيّع الوقت . هات الدفتر الذي بيدك ، وتفضّل معنا أنت والدكتور ، فهناك طرّاد ينتظرنا غير بعيد عن الشاطىء .

ش (إلى م) فاتتك الجائزة يا مسكين .

مارتن أيّ جائزة ؟

ش جائزة المليون دولار .

مارتن هذه باتت من نصيبي ونصيب رفيقي .

ش ولكنه سبقكما إلى اكتشاف أمري .

م بارك الله لهما فيها . الجائزة الوحيدة التي أطمع فيها الآن هي أن أبقى بجانبك يا أبت .

ش سنبقى معاً يا ابني حتى في دنيا بات كلّ مَن

فيها جاسوساً على أخيه بدلاً من أن يكون حارساً له . ويحضرني الآن قول أحد الأنبياء : «ويسكت العاقل في ذلك الزمان لأن الزمان زمان سوء» . فلنسكت ولنمضِ حيث يريدون لنا أن نمضي .

فسنبقى في واد ،
ويبقون في واد .
وسيبقى هذا الكوخ
شاهداً لنا ؛
وشاهداً عليهم
وعلى العالم الذي يمثّلون .
تباركت مشيئة
الحياة

(بسكنتا في ٢٥ أيلول ١٩٦٨)



للمؤلف

الآباء والبنون
الغربال
المراحل
جبران خليل جبران
زاد المعاد
كان ما كان
همس الجفون
البيادر
كرم على درب
الأوثان
لقاء
صوت العالم
النور والديجور
مذكرات الأرقش
كتاب مرداد
النبي (ترجمة)
في مهب الريح
دروب

أكابر
أبعد من موسكو ومن واشنطن
أبو بطة
سبعون (٣ أجزاء)
اليوم الأخير
هوامش
أيوب
يا ابن آدم
في الغربال الجديد
أحاديث مع الصحافة
نجوى الغروب
رسائل
من وحي المسيح
ومضات (شذور وأمثال)
The Book of Mirdad
Kahlil Gibran
Memoirs of a Vagrant Soul
Till We Meet and Twelve Other Stories.





يا ابن آدم

... إذا كان للأمم الحية أن تزدهي بعباقرتها وأن تباهي بفلاسفتها وشعرائها وكتابها فقد حق لنا نحن أبناء الأمة العربية أن نضع ميخائيل نعيمه في رأس مفاخرنا الروحية والأدبية في هذا العصر.

ميخائيل نعيمه مدرسة انسانية فريدة، ومذهب ناصع من أنبل مذاهب الفكر الإنساني، العربي والعالمي.

«يا ابن آدم» عالم يخترع جهازاً للدمار، ثم يختفي، فتمضي بلاده تفتش عنه مخافة أن يفضي بالسر لأعدائها. وأخيراً يهتدي اليه بطريقة عجيبة أحد مراسلي وكالات الانباء، فيدور بين الإثنين حوار طويل يتغلغل في أعقد مشكلات الوجود فينجرف القارئ انجرافاً وراء المؤلف حتى نهاية الكتاب، ويشعر أنه ساح معه سياحة مدهشة وأنه عاد منها بصيد وفير، وخير كثير.

الناشر